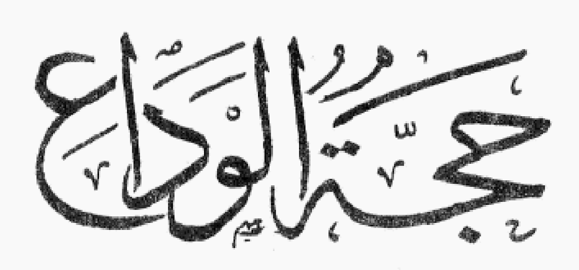
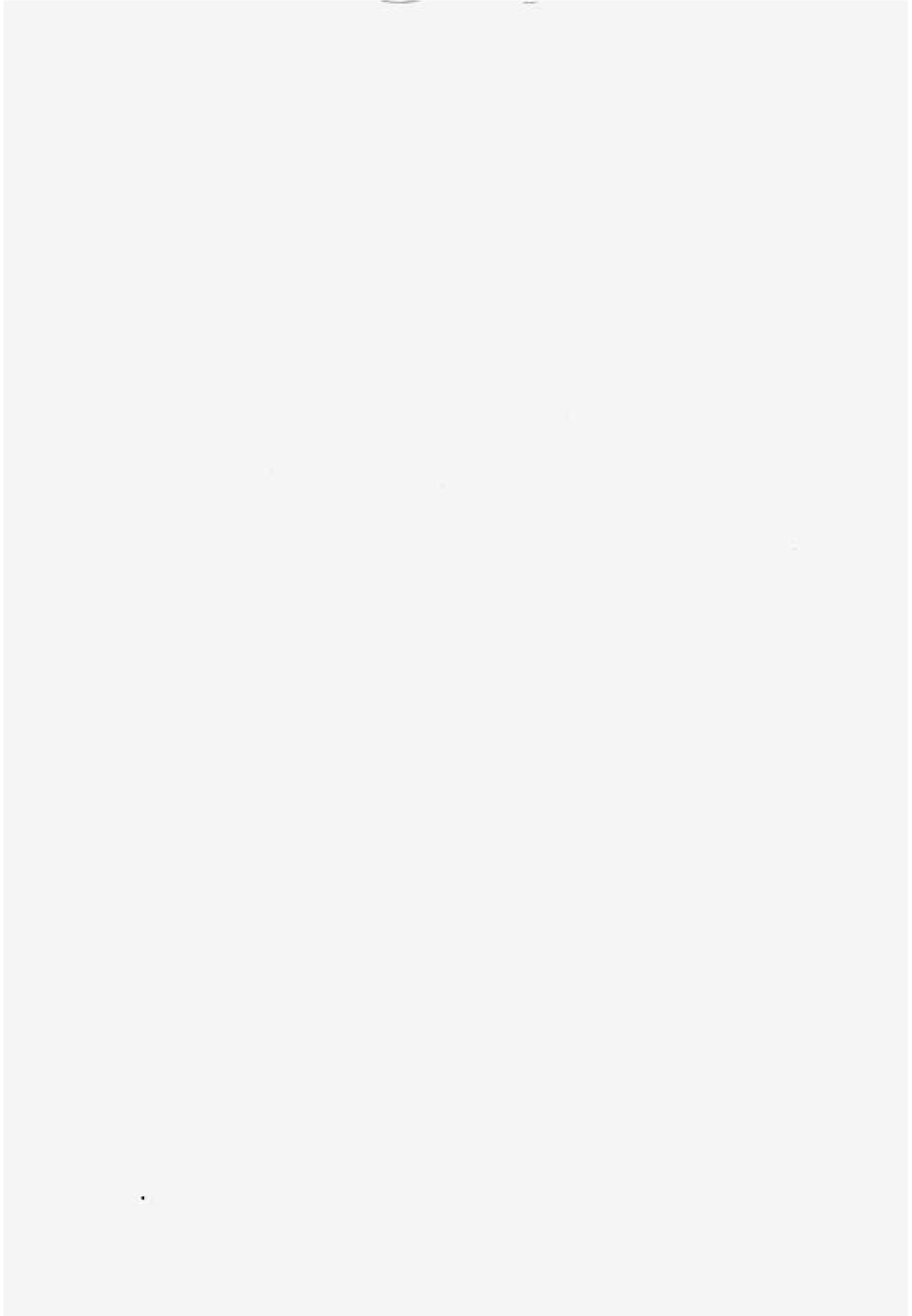
السيرة النبوية





عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾

(قرآن كريم)

١

سجى الليل ونام الكون وما كان يعكر الصمت الذى ران على مسجد الرسول إلا غطيط أهل الصفة ، ما منهم رجل إلا عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . كانوا من فقراء المسلمين وكانوا سبعين قد انقطعوا للعبادة وحراسة رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يلزمونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشبع بطونهم ، فإذا أتت رسول الله ـ ﷺ ـ هدية أصاب منها وأشركهم فيها ، وإذا كان فى دوره طعام من لبن أو تمر أخرجه إليهم وتناوله معهم ؛ وما أكثر ما كان يصوم ويصومون .

وفى هجعة الليل سار بلال بينهم على أطراف أصابعه مفتوح العينين خشية أن يدوس أحدهم أو ترتطم رجله بأحد النوام فيوقظه من نومه اللذيذ . وفيما هو يقدر موقع قدميه وقعت عيناه على أبى هريرة عرِّيف أهل الصفة فرفت على فمه ابتسامة ؛ إنه تذكر ما رآه منه فى أول الليل ، كان الصبية يلعبون لعبة الغراب فإذا بأبى هريرة يتسلل إليهم وهم لا يشعرون ، حتى إذا ما صار بينهم ضرب برجليه كأنه مجنون ، ففر الصبية هٰهنا وهٰهنا وهم يتضاحكون .

إنه يحب مداعبة الأطفال ليشرح صدورهم ويدخل السرور إلى نفوسهم ، وكثيرا ما يداعب أصحابه دعابات لطيفة كيسة ، وله فى رسول الله ـ ﷺ ـ أسوة ، فهو يداعب أبناء المهاجرين والأنصار ويقبلهم فى حب أبوى عميق ، ويحملهم أمامه على دابته أو يركبهم خلفه ، ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا صدقا .

وبلغ بلال الدرج فراح يعرج فيه ، حتى إذا صار على السطح الذى يؤذن من فوقه أخذ يرعى النجوم ويمد عينيه إلى الأفق الشرقى ، إنه الفجر الكاذب وما حان أوان الأذان بعد ، فجلس يرصد السماء ، وما لبث أن انثالت الأفكار على رأسه ، ذكريات بعيدة طواها الزمن ولكنها لا تزال حية فى وجدانه ، وذكريات قريبة حبيبة إلى نفسه ينشرح لها صدره ، وآمال لا تزال فى جوف الغيب لا يدرى إذا ما كانت سترى النور يوما .

تذكر أيام كان مولدا من مولدى بنى جمح ؛ كانت أمه حمامة لا تملك من أمرها شيئا ، زوجوها من أبيه رباح لينسلا للسادة عبيدا ، فجاء إلى الدنيا عبدا حياته عبث ونهايته عدم .

وشب لا يعرف من أمر الدنيا إلا أن سيده أمية بن خلف . إن غضب عليه جلده وإن رضى عنه أعطاه من فضل زاده ، وعاش بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها ألا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه إذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها إلى ظهور الإبل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها !

ومن خلال ظلمات العدم بزغ النور والأمل ، فصوت أبى بكر الصديق يلامس أوتار قلبه فيهزها فى نشوة وهو جالس يرقب الفجر فوق أعلى بيت فى المدينة مثلما هزها فى تلك الليلة التى قال له فيها لما كان فى مكة : إن محمد بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده . وراح يدعوه إلى الإيمان بذلك الدين الذى يثبت الربوبية لرب السموات والأرض وينفيها عن كل الأصنام والأوثان والبشر .

أحس فى تلك الليلة سحر الكلمات التى كانت تسكب فى أذنيه وعظمتها ؛ إنها كلمات قليلة ولكنها فتحت أمامه آفاقا واسعة من الرجاء والأمل . إنه فى لحظة من لحظات العمر الذى كان يبدده سدى تيقن أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ،

وأنه حر ليس لبشر سلطان عليه ، فهو وأمية بن خلف سواء أمام رب الناس إلٰه الناس ، بل قد يصبح عند الله أفضل من أمية بن خلف إن أحسن العمل .

كانت حريته لا تستند إلى شيء ، وكانت إرادته كلما هفت روحه إلى الحرية تخبو ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل إرادة ، ولكن الدين الجديد الذى يدعو إليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية لحياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها ، فلم تعد الحياة عبثا ولا حملا ثقيلا بل دار ممر إلى دار مقر ، والعاقل من أخذ من ممره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، تملكه نزوع وجدانى ينشد الحرية المطلقة ، حرية العقل وحرية الاختيار والإرادة . فكلمات أبى بكر قد رفعت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلأ قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فإذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

إنه عرف ما يريد بعد تدبر وتفكير فاعتنق الإسلام دون إكراه ، وحمل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وأن يعانى الحياة فى صبر بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى إلى اليقين المبين .

خرج بنو جمح لما حميت الظهيرة فطرحوه فى بطحاء مكة ثم أمروا بالصخرة العظيمة فتوضع فوق صدره ، ثم قالوا له :

ـــ لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

كان إيمانه أرسخ فى ذاته الحية التى شحذها الإسلام من تلك الصخرة العظيمة التى تكاد تكتم أنفاسه ، وكانت إرادته أمضى مما نزل به من بلاء فراح يقول :

ـــ أحد .. أحد .

ونزل نشيده بردا وسلاما على فؤاده ، فلم يكتف بالثبات على دينه بل جعل

يسخر من معذبيه . وجاء أبو بكر الصديق ورأى ما يقاسيه من تعذيب فأنقذه مما كان فيه ، وأخذه فأعتقه فتحرر الجسد بعد أن تحررت الروح .

وأشرق وجوده وابتهج به فالدين الذى اعتنقه يعبر عن صوت العقل ، عن جوهر الذات المتعالية ؛ ينمي فى النفوس الخير ويسد جميع المسالك فى وجه الشر ، ما دام الخير والشر لا وجود لهما إلا فى عين إرادة البشر .

كان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى سمته ، والتنافر صفته ، وزاد فى سعادته أنه تعلم بعد الهجرة إلى المدينة أن الله قد خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض ، فبنو آدم قد أصبحوا خلفاء لله بسلطان العلم الذى علمهم ، وبثقل الأمانة التى حملهم ؛ وإنه شرف يشارك فيه إخوانه من البشر ، وإنه ليعمل مع إخوانه المؤمنين على توكيد استحقاق الإنسان لهذه الخلافة وهذا الشرف . وقد زكاهم الله بقوله العظيم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... »[1] .

إن صراع الذات مستمر ، وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والإحساسات الدينية السامية تزداد إرهافا . وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفئدة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحقة القادرة على طرق أبواب السماوات ، فكان الإنسان فى أروع صورة وأحسن تكوين .

وطافت به ذكريات أيام الخندق ، فرأى سلمان الفارسي يضرب فى ناحية منه فغلظت عليه صخرة ورسول الله ـــ ﷺ ـــ قريب منه ، فلما رآه يضرب ورأى

---

(١) آل عمران ١١٠

شدة المكان عليه نزل فأخذ بالمعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، قال سلمان :

ــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

ــ أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

ــ نعم .

أما الأولى فإن الله فتح علىّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق .

كان بلال على يقين من أن الله قد أعطى رسوله ــ ﷺ ــ مفاتيح تلك البلاد ، وأن المسلمين سيفتحونها ، فما ساوره فى ذلك شك ، ولكن سؤالا قام فى نفسه : ترى أيقدر له أن يؤذن فى صنعاء أو منف أو دمشق ؟

إن الله قد أكرمه يوم فتح مكة ، فقد اعتلى ظهر الكعبة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ليؤذن فى ضمير الكون معلنا تحرير البشرية من العبودية لغير الله وحده ، وبزوغ شمس الحرية الكبرى ، وبداية عصر القيم والمثل العليا .

ورن فى عين ذاته ذلك الدعاء الذى سمعه ذات ليلة فى مسجد الرسول : « اللهم اجعلنى ممن سيلقون أسماعهم إلى أذان بلال فى الجنة » . فسرت فيه قشعريرة وبللت الدموع روحه قبل أن تبلل مقلتيه ، وأطرق برأسه تواضعا لله وشكرا حتى كادت جبهته تلمس الأرض .

وبدأت طلائع الفجر تزحف فى الأفق الشرقى فراح صوت بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، إلى استفتاح يومهم بلقاء الله لتطهير النفوس وتطبيب الروح واستدرار البركات ؛ فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

* * *

وقام سلمان الفارسى يتوضأ وكل خلجة من خلجات نفسه تتجه إلى الله وتسبح بحمده ، فهو يعيش بالله وفى الله ؛ فخفقات قلبه شكر وومضات فكره ذكر ؛ فقد كان فى بيت أبيه خادم نار المجوس ولكن الرحمن الرحيم أراد له الرشد والهداية فبذر فى أعماق ذاته الشك ووهبه نفسا تهفو إلى الحق ، فما إن مر بكنيسة من كنائس النصارى وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون حتى دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبه صلاتهم ورغب فى أمرهم وقال دون استكبار : هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه .

كان يريد وجه الحقيقة أينما كانت وقد برأه الله من الهوى ، فلما علم أن أصل ذلك الدين بالشام لم يفكر فى أبيه ولا فى أهله ولا فى قريته ، بل شد الرحال إلى الشام باحثا عن إيمان يستريح إليه فؤاده .

وجاء إلى الأسقف فى كنيسته وراح يخدمه ويتعلم منه ويصلى معه ، ولكنه وجد الأسقف يعمل غير ما يقول ، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ، فلم يسخط على الدين بل سخط على رجل السوء ، وبقى فى الكنيسة ثم رحل من الشام إلى الموصل بحثا عن الحقيقة ، ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبه فشد الرحال إلى نصيبين ثم إلى عمورية فى أرض الروم ، وهناك علم أنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث على دين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب .

نبي ؟! يا ليته يستطيع أن يلقاه ليجد عنده جوهر الحقيقة التي ترك الأهل والخلان والأوطان في سبيلها . وجاءه الفرج فقد مرت به قافلة من العرب فالتمس منهم أن يحملوه إلى أرضهم التي أصبحت حلمه ومهوى فؤاده ومحط آماله . وبلغوا وادي القرى فظلموه وباعوه إلى رجل يهودي عبدا .

إن ابن دهقان قرية جي بأصبهان المجوسي خادم النار الذي هام على وجهه في الأرض بحثا عن الحقيقة قد أصبح عبد اليهودي . ولم يدر ما حكمة صيرورته عبدا ولكن ظل قلبه عامرا بالإيمان بأن الله الذي خرج للبحث عنه لن يضيعه ، وكان أن تعلم العربية لغة ذلك النبي المنتظر ، وكانت حكمة الله التي غابت عنه أن يتعلم لسان القرآن الذي سيشفي نفسه وينير فؤاده بأنوار اليقين .

وقدم على اليهودي الذي اشتراه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعه منه فاحتمله إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رآها فعرفها بصفة صاحبه فبات يتحرق شوقا للقاء ذلك النبي الذي بشر به الأنبياء ، واحتمل الرق صابرا في سبيل أن يكون له شرف أن يلقاه ويلقي إليه السمع والفؤاد .

وهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ، وسمع به فإذا برعدة تسري في بدنه وإذا بكيانه كله ينتفض وإذا به ينطلق إلى حيث كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه وأصغى إلى حكمته خفق قلبه في رضا ، وتيقن أن ذلك الحديث الذي ينبض بالصدق هو ما هجر كل مباهج الدنيا في سبيله ، وبهرته الحقيقة وغمره فرح فياض أن عثر على ضالته المنشودة ، فنطق بالشهادتين في صوت متهدج تخنقه العبرات من فرط الانفعال .

وعلم رسول الله ـ ﷺ ـ أن سابق الفرس عبد ليهودي من بني قريظة ، ولما كان رسول الإسلام قد بعث لتحرير النفوس والرقاب قال :

ـ كاتب يا سلمان .

وهرع سلمان إلى اليهودي الذي اشتراه وراح يفاوضه على تحريره من الرق

والعبودية ، فكاتبه صاحبه على ثلاثمائة نخلة يحييها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله — ﷺ — محرر الأرواح والرقاب — لأصحابه :

— أعينوا أخاكم .

فأعانوه بالنخل ، الرجل بثلاثين من فراخ النخل الصغار ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر ؛ يعين الرجل بقدر ما عنده ، فقد كان المسلمون يحبون أن يروا إخوانهم فى الدين أحرارا من أغلال الرق البغيض .

واجتمع له ثلاثمائة من فراخ النخل الصغار ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— اذهب يا سلمان ففقر[1] لها ، فإذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى .

وحفر وأعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ جاء رسول الله — ﷺ — فأخبره ، فخرج عليه السلام معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه فراخ النخل الصغار ويضعها رسول الله — ﷺ — بيده حتى فرغوا ، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها واحدة .

وأدى سلمان النخل وبقى عليه المال ، فأُتى رسول الله — ﷺ — بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، فقال لسلمان :

— خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان .

فأخذها فوزن لهم منها أربعين أوقية فأوفى صاحبه حقه منها ، وأصبح سلمان حرا فخر ساجدا لله شكرا أن حرره من رقه ، وأن كشف له عن وجه الحقيقة ، وأن افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وأن جعله صاحب رسوله المصطفى عليه السلام .

وتذكر سلمان وقلبه يخفق سعادة ما كان بين المهاجرين والأنصار من شأنه ،

---

(١) فقر : احفر .

قال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار بل سلمان منا ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ سلمان منا أهل البيت .

وكان بعض المسلمين الذين لم يتخلصوا بعد من روح الجاهلية يعيرون بلالا بأنه حبشي وأن أمه سوداء ، وكانوا يعيرون سلمان بأنه فارسي . فقضى رسول الله ـ ﷺ ـ على هذه النعرة التى لا تتفق مع دين الإنسانية جمعاء ، فقال عليه السلام :

ـ « يأيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

وأتم سلمان وضوءه فخرج إلى المسجد وقد أشرقت أنوار المعرفة فى فؤاده ، فهو على نور من ربه ، قد ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفى من مولاه ، فلمع فى قلبه من وراء الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد فى الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

* * *

وخرج على بن أبى طالب إلى المسجد تتحرك شفتاه ببعض ما فى صدره من كنوز علمه ، وقد اتجهت عيناه إلى الباب الذى سيخرج منه رسول الله ـ ﷺ ـ حبيبه ومعلمه وقدوته وأب زوجه الزهراء وجد ولديه الحسن والحسين .

أصابت قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم :

ـ يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، أخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

— نعم .

لم ينس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل أن يبعث ليتمم مكارم الأخلاق أن أبا طالب قد كفله صغيرا وأن الأوان قد آن ليرد للشيخ بعض أفضاله ، فانطلق مع عمه العباس حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

— إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

— إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

وكان مما أنعم الله به على علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان فى حجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل الإسلام ، وفى بيت خديجة بنت خويلد فلم يبهره ما فى الدار من فاخر الرياش بل كان مأخوذا بابن عمه ، وبذلك النور الذى كان يملأ الغرفة التى أعدها ابن عمه لعبادته .

وكان الصبى يجلس إلى ميسرة غلام خديجة يسمع منه فى إعجاب ما كان من أبى القاسم لما خرج معه إلى الشام فى تجارة مولاته ، إن محمدا قد أسر الناس فى الأسواق بيسره ودماثة خلقه ولين جانبه . وكان ميسرة يقول فى حماس . إن أبا القاسم قد خلق ليكون أعظم تاجر فى جزيرة العرب وإن أمانته تؤهله لذلك ، ولكن عليا على الرغم من صغر سنه كان يستشعر فى أعماقه أن ابن عمه قد خلق لشىء أعظم من ذلك ، فهو زاهد فى عرض الدنيا لا يحفل كثيرا بالمال ، وهو ينفقه إنفاق من لا يخشى الفقر ، فهو جواد كالغيث كريم كالسحاب .

وجاء ما أكد حدس الصبى فبعث الله رسوله بشيرا ونذيرا للناس كافة ، فآمن به وصدّق بما جاءه من الله تعالى ، وكان إذا حضرت الصلاة خرج رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين مستخفيا من أبيه ، ولكن أبا طالب عثر عليهما يوما وهو يصليان ، فقال لرسول الله — ﷺ :

— يا بن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

— أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه .

— أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت .

قطب الصبى جبينه وطاف به حزن ، كان يطمع فى إسلام أبيه ، وقد خفف من لوعته أن الأمل فى إسلام أبى طالب كان يراوده ما دام أبو طالب حيا ، ولكن أبا طالب قد وافاه أجله دون أن يربط لسانه بشهادة الحق ؛ كان فى قرارة نفسه يؤمن أن الله أكبر من أن يبعث بشرا رسولا . إن عليا كرم الله وجهه كلما تذكر أن الشيخ مات على الكفر أحس غصة فى حلقه ودموعا تبلل مقلتيه .

إنه فى تلك الليلة التى هاجر فيها الرسول — ﷺ — نام على فراشه وتسجى ببرده الحضرمى الأخضر ، ولم ترتعد فرائصه وإن كان يعلم أن قريشا اجتمعت على باب الرسول يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويضربوه ضربة رجل واحد ، وأنهم قد يدخلون عليه فى أية لحظة ينتهبونه بأسيافهم .

كان هادئ النفس مطمئن الفؤاد فهو منذ أعلن إسلامه قد وطد العزم على أن يكون نحره قبل نحر رسوله ، وأن يفدى ابن عمه الذى اصطفاه ربه بالروح ، وهاجر الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ولم يخلص إلى على شىء يكرهه من أعداء الإسلام ، فراح على يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول

الله — صلى الله عليه وسلم — ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته — صلى الله عليه وسلم — .

وهاجر إلى المدينة ونزل بقباء ليلتين ، فرأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيها إنسان فى جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه ، فاستراب بشأنه فذهب إلى المرأة وقال لها :

— يا أمة الله من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدرى ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

— هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال احتطبى بهذا .

وكانت صداقة بينه وبين سهل بن حنيف ، ولم يدر فى خلده فى ذلك الوقت أن سهلا سيقف إلى جانبه فى الفتنة الكبرى ، وأنه سيهلك عنده بالعراق .

وآخى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال :

— هذا أخى .

واشتد وجيب قلب الفتى وامتلأ صدره رضا ، فإمام المتقين ورسول رب العالمين قد أعلن على الملأ أنه قد آخى بين نفسه التى لا نظير لها فى العباد وبين ابن عمه الذى شبَّ فى حجره يغترف من نبع الحكمة ، ويروى ذاته المتعطشة إلى العلم من أنهار المعرفة المتدفقة من لدن العليم الخبير إلى صدر رسوله المصطفى الأمين .

وكان الفتى رفيق عمار بن ياسر فى غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأقام بها رأيا أناسا من بنى مدلج يعملون فى عين لهم وفى نخل ، فقال على ابن أبى طالب لعمار :

— يا أبا اليقظان هل لك فى أن نأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ؟

— إن شئت .

فجاءاهم فنظرا فى عملهم ساعة ، ثم غشيهما النوم فانطلقا حتى اضطجعا فى صفار النخل وفى تراب لين فناما ، فوالله ما أيقظهما إلا رسول الله — ﷺ — يحركهما برجله وقد تتربا من ذلك التراب اللين الذى ناما فيه ، فيومئذ قال رسول الله — ﷺ — لعلى :

— مالك يا أبا تراب ؟

لما يرى عليه من التراب ، ثم قال :

— ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين ؟

— بلى يا رسول الله .

— أحيْمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه — ووضع يده على قرنه — حتى يبلل منها هذه — وأخذ بلحيته .

وكانت كنية أبى تراب أحب كناه إلى نفسه .

وخرج المسلمون إلى بدر وكانت إبل أصحاب رسول الله — ﷺ — يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها ، فكان رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبى طالب ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله — ﷺ — يعتقبون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، أين ذلك اليوم من يوم حنين ؟ كانوا يوم بدر قلة ولكن قلوبهم عامرة باليقين ، وكانوا يوم حنين يقولون فى غرور لن نغلب اليوم عن قلة ، بينما كان فيهم منافقون يترصدون الأحداث لينفثوا سموم الهزيمة فى قلوبهم .

وقتل على بن أبى طالب يوم بدر الوليد بن عتبة فبذر بذرة الكراهية فى قلب أخته هند بنت عتبة ، فكانت تربى ابنها معاوية بن أبى سفيان على كراهية ابن أبى

طالب . ولم ينج بيت من بيوت قريش من سيف على بن أبى طالب البتار ، فقد قتل منهم سبعة وثلاثين رجلا ، فكانت قريش كلها تتحرق شوقا للثأر من ربيب محمد وفارسه . وقد دخلت قريش كلها فى الإسلام بعد فتح مكة ولم تخمد نار العداوة لفتى الإسلام بل ظلت ذمنة تحت الرماد ، حتى إذا ما هبت رياح الفتنة بعد مقتل عثمان تأججت نيران الثأر القديم والحقد الدفين ليكتوى بها الإمام .

وكان يوم أحد ، فراح مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يحمل لواء المهاجرين ، وقتل مصعب فأعطى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اللواء علىّ بن أبى طالب فتقدم على فقال :

— أنا أبو الفُصم[1] .

فناداه أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين ، قال فى سخرية :

— هل لك يا أبا الفصم فى البراز من حاجة ؟

— نعم .

فبرزا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه فقال له أصحابه :

— أفلا أجهزت عليه ؟

— إنه استقبلنى بعورته فعطفتْنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .

كانت ضربة فتى الإسلام وترا فما كان فى حاجة إلى أن يجهز على الرجل فضربته قاتلة ليس لها دواء .

وعصى الرماة أوامر النبى — صلى الله عليه وسلم — فكانت الهزيمة ، ولما انصرف أبو سفيان

---

(١) الفصم : كسر بغير بينونة ، ككسر القضيب الرطب ونحوه .

ومن معه نادى :

ـــ إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لرجل من أصحابه :

ـــ قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على بن أبى طالب فقال :

ـــ اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

فخرج على فى آثارهم وقد امتلأ شفقة على المسلمين ، فعبد الرحمن بن عوف أصيب فوه فهُتم ، وجُرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج ، وترس دون رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، وكسرت رباعية النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وقتل « أسد الله » حمزة بن عبد المطلب ، وقتل رجال من الأنصار والمهاجرين ، وأصاب الجهد المسلمين .

وجنب أبو سفيان ومن معه الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، فاستشعر على راحة وتنفس الصعداء فلن يكون قتال فى المدينة بين المسلمين المثخنين بالجراح وبين أعدائهم الذين فضلوا أن يعودوا إلى مكة وفى ركابهم نصر ، وإن لم يكن نصرا حاسما ولكنه نصر على أى حال .

وعاد رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى داره ومعه ربيبه وحبيبه وأخوه على بن أبى طالب ، وناول عليه السلام سيفه ابنته فاطمة فقال :

ـــ اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال :

— وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة .

وساد الصمت برهة ، ثم قال رسول الله — ﷺ — لعلى :

— لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

وصدق رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما أصاب المشركون منهم مثلها حتى فتح الله عليهم مكة .

وجاءت قريش بزهوها يوم الخندق إلى المدينة وهى تحرض القبائل على المسير معها ، فعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عبدود وهبيرة بن أبى وهب المخزوميون ، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا :

— تهيئوا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم .

ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا :

— والله إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبى طالب عليه السلام فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تسرع نحوهم ، وكان عمرو به عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلما ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال :

— من يبارز ؟

فأراد على بن أبى طالب أن يتقدم لمبارزته ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ حال بينه وبين ذلك ، فقد قتل يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه الحارث ، وقتل يوم أحد عمه حمزة بن عبد المطلب ، وهو يخشى أن يقتل فى هذه الغزوة ربيبة وحبيبه وزوج الزهراء ، ولكن عليا صمم على قتال ابن عبد ود فراح رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يبتهل إلى الله فى حرارة أن يبقى له خير أهله الذى نشأ فى حجره ، والذى أحبه من كل قلبه .

وبرز على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ود فقال له :

ـ يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ـ أجل .

ـ إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

ـ لا حاجة لى بذلك .

إن ربيب محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد حفظ الدرس الذى لقنه رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ للمسلمين : أن يعرضوا السلام قبل القتال ، فالله لا يحب المعتدين ، وقد دعا ابن أبى طالب عدوه إلى الله فأبى ، فقال له على بعد أن يئس من سلمه :

ـ فإنى أدعوك إلى النزال .

ـ لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

ـ لكنى والله أحب أن أقتلك .

فاشتد غضب عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجاولا ورسول الله ـ ﷺ ـ يبتهل فى حرارة ويدعو ربه أن ينصر ابن عمه ولا يفجعه فيه ، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، وأعلنت

أصواتهم فى فرح أن عليا قتل ابن عبد ود ، فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ وقد امتلأ قلبه بالشكر لله ، فرأى خيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وخان بنو قريظة عهد رسول الله ـ ﷺ ـ واتفقوا مع قريش على أن يخذلوا رسول الله عليه السلام وأن يفتحوا لهم الطريق الذى كان عليهم أن يدافعوا عنه ، ليطوقوا المسلمين فى الخندق ، ولولا لطف الله وهبوب الرياح التى اقتلعت خيام قريش وكفأت قدورهم فاضطروا للرحيل لتمت المؤامرة وقضى قضاء مبرما على الإسلام والمسلمين ، إنها خيانة عظمى للدولة ليس لها جزاء إلا القتل ، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ مؤذنا فأذن فى الناس :

ـ من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .

وقدم رسول الله ـ ﷺ ـ علي بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرها الناس . فسار على بن أبى طالب حتى إذا دنا من الحصن سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ـ ﷺ ـ وضايق ابن أبى طالب أن يسمع رسول الله ـ ﷺ ـ السباب من أفواه اليهود ، فرجع حتى لقى رسول الله ـ ﷺ ـ بالطريق فقال :

ـ يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث .

ـ لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى .

ـ نعم يا رسول الله .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ أعلم بأخلاق اليهود من ربيبه وحبيبه فقال :

ـ لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا رسول الله ـ ﷺ ـ من حصونهم قال :

ـ يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

ـ يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وكان جزاؤهم جزاء من يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للدولة التى

يعيشون فيها أثناء حرب تنذر بالقضاء على الدولة ومعتقداتها ، فضربت أعناقهم .

وكانت غزوة بنى المصطلق وسقوط عقد عائشة وتخلفها للبحث عنه ، ومرور ابن المعطل بها واحتماله إياها على بعيره وحديث الإفك وخطبة الرسول فى الناس بذكر إيذاء قوم له فى عرضه ، ثم دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا وقالة ، ثم قال :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما على فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك .

ولم يكن على يريد النيل من عائشة ، كان هدفه أن يقطع دابر ذلك القلق الذى استولى على حبيبه ، فدعا رسول الله — ﷺ — بريرة ليسألها ، فقام إليها على بن أبى طالب فضربها ضربا شديدا ويقول :

— اصدقى رسول الله — ﷺ .

— والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سماوات ، واطمأن قلب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وفرح على لبراءة عائشة فقد كان على يقين من أنها أحب زوجات رسول الله عليه السلام إليه ، ولكن قول ابن أبى طالب وفعله جرح كبرياء عائشة جرحا عميقا لم تقو الأيام على برئه ، فلما قتل عثمان نكأت الأحداث جرح النفس فخرجت عائشة تطالب بدم عثمان ، وكانت وقعة الجمل ، وكان أن قُتل صحابة الرسول بأسياف صحابة الرسول بعد أن كانوا سيوف الله المسلولة فى وجه أعداء الإسلام .

وكان صلح الحديبية ، ثم نقض قريش لذلك الصلح بأن تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم من أصابوا وكانوا فى عقد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، وكان أن خافت قريش أن يصل أمر ذلك إلى رسول الله عليه السلام فينهض لنصرة حلفائه ، فبعثت أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة ، ولكن أبا سفيان قدم على رسول الله — ﷺ — المدينة بعد أن خرج عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله — ﷺ — فاستنصره فنصره .

ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين ، إنها كانت من أوائل المسلمات وقد هاجرت إلى الحبشة وتنصر هناك زوجها وبقيت هى على دينها ، وتزوجها النبى — ﷺ — لعل هذه المصاهرة تخفف من عداوة بنى أمية عامة وأبى سفيان خاصة ، ولكن هذه الزيجة لم تحقق هدفها السياسى ، فقد بقى أبو سفيان بن حرب على عداوته للإسلام والمسلمين .

إن أم حبيبة مسلمة مؤمنة بالدين الذى اعتنقته وإن أباها ليعلم ذلك ، ولكن زعامته مهددة إذا ما أخفقت سفارته ، بل إن مكانة مكة كلها قد أصبحت فى الميزان ، ولا بد أن أم حبيبة ستفطن إلى كل ذلك وإلى حرج موقف أبيها فتمد يد العون إلى سيد قريش وتشفع له عند زوجها الذى صار مفتاح الموقف فى يده :

وذهب ليجلس على فراش رسول الله — ﷺ — فطوته عنه ، فلاح الدهش فى وجهه وقال وهو يتفرس فيها فى عجب :

— يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى .

— بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله — ﷺ — .

وتقاصرت نفس شيخ قريش فما دار فى خلده أن يأتى يوم يطوى عنه فراش ،

وهو الذى قدمت إليه النمارق فى قصر كسرى وكانت الأبواب تفتح له فى قصور الشام. ومن ذا الذى طوى عنه الفراش؟ إنها أم حبيبة ابنته التى كانت أطوع له من بنانه قبل أن يفرق محمد بن عبد الله بتعاليمه بينه وبينها.

وهب غاضبا وقال:

— والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فلم يرد عليه شيئا، فاستشعر مذلة وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء؛ ولكنه وجد فى رجوعه خائبا نهايته فعزم على أن يسير إلى آخر الشوط وأن يقرع كل الأبواب وإن كان فى ذلك إراقة لماء وجهه، فالمهانة التى قد تلحقه فى المدينة أهون من أن يعود إلى مكة دون أن يشد العقد ويزيد فى المدة.

ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فقال:

— ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال:

— أأنا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ؟ — فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها، فقال:

— يا علىّ إنك أمس القوم بى رحما، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لى إلى رسول الله.

— ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله — ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال:

ــ يابنة محمد هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت :

ــ والله ما بلغ بُنىَّ ذاك أن يُجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ــ ﷺ :

ــ فالتفت إلى علىّ وقال فى هوان :

ــ يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى .

ــ والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

ــ أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

ــ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال :

ــ أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا :

ــ ما وراءك ؟

ــ جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار على بشىء صنعته فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟

ــ وبم أمرك ؟

ــ أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

ــ فهل أجاز ذلك محمد ؟

ــ لا .

— ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت .

— لا والله ما وجدت غير ذلك .

كان على بن أبى طالب لينا ولكنه كان داهية ، ولولا التقى والدين لكان أدهى العرب ، فالدهاة يفجرون وربيب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يفجر بل يتقى الله فيما يفعل وفيما يقول .

وكان رسول الله — ﷺ — يحب عليا وكان ذلك الحب يثير غيرة المنافقين ، فلما خلف رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم عندما خرج لغزوة تبوك وجد المنافقون فى ذلك فرصة لإ يغار صدر علىّ على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقالوا :

— ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه .

فلما بلغ القول مسامع على أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو نازل بالجرف فقال :

— يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك — استثقلتنى وتخففت منى .

— كذبوا ولكننى خلفتك لما تركتُ ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟

كان عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين فى المدينة لم يخرج مع المسلمين للغزو ، وقد قعد المنافقون عن الجهاد ، فكان من الحكمة أن يبقى رجل قوى الشكيمة من أهل بيت الرسول يقطع رأس الفتنة إذا ما زينت لها أطماعها أن تتحرك ، فرجع على إلى المدينة ليخلف رسول الله — ﷺ — لما ترك وراءه من أهله ومن أعداء الله وأعداء رسوله .

ونزل صدر سورة براءة على رسول الله — ﷺ — وقد كان بعث أبا بكر

الصديق ليقيم للناس الحج ، قيل له :

ــ يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟

ــ لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له :

ــ اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ــ ﷺ ــ عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله ــ ﷺ ــ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

ــ أأمير أم مأمور ؟

إن أبا بكر يقبل بقلب سليم كل ما يأتى من عند رسول الله ــ ﷺ ــ فسواء عنده أن يكون أميرا أو مأمورا فقد جبل على الطاعة منذ إشراق قلبه بنور الإسلام ، فقال على :

ــ بل مأمور .

ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ــ ﷺ ــ عهدا فهو له إلى مدته .

وأجلّ الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ــ ﷺ ــ عهد إلى مدة فهو له إلى مدته .

ولو رفعت الأسجاف عن الغيب القريب لرأى الناس أن ذلك كان تدبير العزيز الحكيم لآخر حجة يحجها رسوله الأمين ليضع آخر اللمسات فى الدين القيم ، وليكمل الله للناس دينهم ويتم عليهم نعمته ويرضى لهم الإسلام دينا .

* * *

وفتح دار فى السنح فخرج منه شيخ جليل فى الثامنة والخمسين من عمره ، نحيف قد انحنى ظهره قليلا ، وديع كالحمل ، مستقيم الضمير سهل لين ، متواضع يألفه الناس،ذهنه متفتح للفهم والتفكير ، مطبوع على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح ؛ وراح يوسع من خطوه فى عماية الصبح ليصلى الفجر خلف صاحبه الذى لم يفارقه فى طفولته وشبابه وشهد معه المشاهد كلها ، إنه أبو بكر الصديق ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

تأثر بصاحبه منذ نعومة أظفاره فتعلم منه قبل أن يبعث الكفر بالأصنام والاستخفاف بعبادة قومه ، فلما ناهز الحلم أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

ـــ هذه آلهتك الشم العوالى .

وخلاه وذهب ، فدنا من الصنم وقال :

ـــ إنى جائع فأطعمنى .

فلم يجبه فقال :

ـــ إنى عار فاكسنى .

فلم يجبه ، فألقى عليه صخرة فخر لوجهه ، وفى تلك اللحظة انهارت جميع الحواجز والسدود التى قد تقف فى سبيل اعتناقه دينا جديدا يقبله عقله المتفتح للفهم وقلبه الذى خلا من التعصب للدين الذى وجد آباءه عليه عاكفين .

وبعث الله محمدا ـــ ﷺ ـــ بشيرا ونذيرا فعرض الإسلام على رفيق صباه ،

فأسلم أبو بكر بن أبى قحافة ولم يتردد بعد أن وجد أن ما يعرضه عليه رسول الله — ﷺ — يستقيم مع الفطرة ويتساوق مع منطق الوجود ، ولما كان شجاعا يجهر بالحق فقد أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ؛ فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومى والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان ابن مظعون وأخواه .

وكان عثمان بن مظعون أحد من حرم الخمر فى الجاهلية وقال :

— لا أشرب شرابا يذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى .

فلما حرمت الخمر أتى وهو بالعوالى فقيل له :

— لقد حرمت .

— تبا لها ، قد كان بصرى فيها ثاقبا .

أقبل أبو بكر على الإسلام بكل كيانه وحماسه ، ودخل فى الإسلام من بعده خلق كثير ، ولكن إسلام أبى بكر كان شيئا هاما فى الإسلام ترك أثرا عميقا فى وجدان رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنه كان يقول :

— ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة[1] ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم[2] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه .

وكان أبو بكر مذ أول يوم دخل فيه فى الدين الجديد عونا للإسلام ونبى الإسلام عليه السلام ، فقد كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يطوف

---

(١) الكبوة : التأخير وقلة الإجابة . وهو من قولهم كبا الزند : إذا لم يور نارا .

(٢) عكم : تلبث .

بالبيت فوثب إليه أشراف قريش وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول :

— أتقتلون رجلا أن يقول ربِّىَ الله ؟

وفهم أبو بكر روح الإسلام فهما عميقا ، إنه جاء ليحرر الأرواح ويفك الرقاب ، فما أتيحت له فرصة ليعتق عبدا إلا اهتبلها ، إنه أعتق مولاه عامر بن فهيرة وأم عبيس وزنِّيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش :

— ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .

فقالت :

— كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .

وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول :

— والله لا أعتقكما أبدا !

— حِل[1] يا أم فلان .

— حِل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .

— فبكم هما ؟

— بكذا وكذا .

— قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا وقد أرهف الإسلام إحساسهما بالمسئولية :

— أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟

— وذلك إن شئتما .

---

(١) حل : يريد تحلل من يمينك واستثنى فيها .

ومر بجارية بنى مؤمل — حى من بنى عدى بن كعب — وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك ، وهو يضربها حتى إذا مل قال :

— إنى أعتذر إليك ؛ إنى لم أتركك إلا ملالة .

— كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

ومر أبو بكر ببلال وهو يعذب وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية ابن خلف :

— ألا تتقي الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

— أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

— أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به .

— قد قبلت .

— هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك ، وأخذ بلالا وأعتقه .

وكان أبو قحافة يرى ما يفعل ابنه فيعجب فى نفسه ، كان أبو قحافة على دين قومه ولم يكن قد أسلم فلم يتشرب روح الإسلام بعد ، فكان عسيرا عليه أن يفهم صنيع ابنه فهو يقيس أفعال أبى بكر بمقاييس مادية لا تصلح لقياس الأفعال فى الدين الجديد .

قال أبو قحافة لأبى بكر :

— يا بنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلْدا يمنعونك ويقومون دونك ؟

— يا أبت إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل .

فأنزل الله فيهما : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »(١) .

واضطهد كفار قريش المسلمين فضاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها الأذى ، فاستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش فقال :

— أين يا أبا بكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ .

— ولم ؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم . ارجع فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير .

فكفوا عنه . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح فكان يصلى فيه ، وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له :

---

(١) الليل ٥ — ١٢

ــ يا ابن الدغنة إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا ! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء .

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له :

ــ يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

ــ أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

ــ فاردد على جوارى .

ــ قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

ــ يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد رد علىَّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

ولقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه ترابا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة فقال أبو بكر :

ــ ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

ــ أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر عينيه إلى السماء وقال :

ــ أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك !.

وأسرى برسول الله ــ ﷺ ــ فغدا رسول الله عليه السلام على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

ــ هذا والله الإمر (العجب) البين ، والله إن العير لتُطرد شهرا من مكة إلى الشام مُدبرة وشهرا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟

فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له :

ـــ هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

ـــ إنكم تكذبون عليه .

ـــ بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر فى إيمان عميق :

ـــ والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

إنه يؤمن برسالة محمد عليه السلام ويصدق كل ما جاء به ، فهو الصدِّيق ، ولو وزن إيمان الأمة ووزن إيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر .

وهاجر المسلمون إلى المدينة وأقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة . ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق .

وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى الهجرة فيقول له رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .

فيطمع أبو بكر أن يكونه ، فلما أذن الله تعالى لنبيه ـــ ﷺ ـــ بالهجرة انطلق إلى دار أبى بكر فقال :

ـــ إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

ـــ الصحبة يا رسول الله .

ـــ الصحبة .

وبكى أبو بكر من الفرح ثم قال :

ـ يا نبى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا .

فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمد إلى غار بثور فاتتهيا إليه ليلا . فدخل أبو بكر قبل رسول الله ـ ﷺ ـ فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله ـ ﷺ بنفسه .

ومضت ثلاثة أيام وسكن عنهما الناس ، فأتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قدم له أفضلها ثم قال :

ـ اركب فداك أبى وأمى .

ـ إنى لا أركب بعيرا ليس لى .

ـ فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

ـ لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟

ـ كذا وكذا .

ـ قد أخذتها به .

ـ هى لك يا رسول الله .

فركبا وانطلقا ؛ رسول الله ـ ﷺ ـ مطمئن الفؤاد تنكشف له الحقائق بكشف إلٰهى وتنسكب فى قلبه الأنوار ويرى ببصيرته النافذة عالم الملكوت فيشاهد ما وراء حواسه ويستشعر شعورا صادقا لا ريب فيه أنه مع الله وأن الله معه ، وأبو بكر الصديق متفرح فى الله يعيش بكل كيانه فى اللحظة الخالدة التى تحتويه . إنه اختار الطريق وإنه يتحمل راضيا ما يقاسيه من آلام فراق الأهل والأحباب والأوطان ، فإرادته الحرة قد غمرته بسعادة طاغية يهون فى سبيلها أى ألم ، إنه قطع كل علائقه بالدنيا وأقبل بكنه الهمة على الله فأشرقت ذاته بأنوار تبهر ما

فى النفس من آمال زائغة وأطماع زائلة . إنه ذاق حلاوة الإيمان فملئ شوقا إلى ما عند الله .

كانت قافلة صغيرة تسرى فى معبد الكون ؛ رسول الله ـ ﷺ ـ قد رطب لسانه بذكر الله ، وأبو بكر الصديق يفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه فأنساه ذلك الخطر المتربص بهما فى الطريق ، كان عميق الإيمان بأن الله ناصر رسوله ومبلغه مأمنه ، فهو سبحانه الذى أشار على عبده بالهجرة ولن يضيعه ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخدمهما فى الطريق ، وكان الدليل ينطلق بهم فى شعاب غير مطروقة ليبتعد بهم عن الأنظار !

كان الركب صغيرا ولكن الحدث كان أعظم حدث فى تاريخ البشرية ، كان سوس الفساد ينخر فى شجرة الحضارة ، اتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا ، الرعية يعبدون ملوكهم بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم، والأقوياء يستعبدون الضعفاء ، والأغنياء يعيثون فى الأرض فسادا بأموالهم ، والوجود قد رانت عليه الظلمات ، حياة بلا أمل وضياع بلا نهاية . الدولة الرومانية غائبة فى غيبوبة الخمر واللذات الحسية قد صمت أذنيها عن أنات الشعب الذى طحنته المظالم والضرائب الجائرة ، وقيصر قد صار إلـٰها ، والكنيسة أعرضت عن السماء وصار القصر الإمبراطورى مصدر وحيها ونبع بركاتها ، والمترفون يتخذون الرجال شهوة من دون النساء ، والدولة الإيرانية ساجدة أمام بيوت النار قد سرى فى جنباتها الفساد بعد أن أنهكتها الحروب وخوت خزائن الأموال ، فراح الأقوياء يهضمون حقوق الضعفاء ، وصارت الحياة بلا هدف كأنما كان خلق الكون باطلا وعبثا ، وفى ذلك الوقت الذى وصل فيه العفن إلى قلب البشرية ، كان الركب الصغير الذى خرج من مكة ، فرارا من الاضطهاد متجها إلى المدينة هو النور والأمل والبلسم الشافى لكل أمراض الإنسانية .

إنه إعلان أن لا عبودية بعد اليوم إلا لله وحده، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن الإنسان خليفة الله فى أرضه، وأنه حر رقبته حرة وإرادته حرة، له أن يعتقد ما يشاء وأن يفكر كيف يشاء وأن يحتمل مسئولية حرية إرادته وحرية فعله وتفكيره، ولم تعد الحياة عبثا تنتهى بخمود الأنفاس بل هى بداية لحياة أخرى خالدة، حياة توفى فيها كل نفس ما عملت ولا يظلم ربك أحدا.

أصبح العمل عبادة، وطلب العلم عبادة، وطهارة النفس والبدن عبادة، وإنفاق المال فيما أمر به الله عبادة، والصدق فى القول والعمل عبادة، وبر الوالدين عبادة، ومحاربة الظلم عبادة، وكف الأذى عن الناس عبادة، وبذل المعروف لأهله ولغير أهله عبادة، وحب الخير للبشرية جمعاء عبادة، والصبر على المكروه عبادة، وإماطة الأذى من الطريق صدقة، وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة.

خرج محمد — ﷺ — من مكة ليس معه إلا صاحبه أبو بكر الصديق، ولم تمض إلا سنوات حتى عاد إلى مكة فى عشرة آلاف من الأبرار ليحطم الأصنام ويطهر منارة التوحيد من الشرك ويعيد للبشرية كرامتها، وقد فاضت النهضة التى سعدت بها الجزيرة العربية على الرومان والفرس فجددت شباب الحضارة المتداعية وزينتها بمكارم الأخلاق، فهرقل إمبراطور الروم لما بلغه نبأ تحطيم الأصنام فى البلاد العربية قام ينادى بإزالة التماثيل والصور من الكنائس فكانت حرب الصور، ولم ينجح هرقل فى أن يحقق بعض ما حقق رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه، وظل الاستبداد الطبقى مسيطرا على الدولة الرومانية والدولة الفارسية، فكان على العرب حملة مشعل الحرية أن يغزوا دولتى الفرس والروم تمكين الحرية والمساواة فى الأرض، والقضاء على الطبقة المستبدة العاملة على استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

وسمع المسلمون فى يثرب بخروج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مكة فانتظروا قدومه ، فكانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر حرَّتهم ينتظرون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأكثرهم لم يكونوا رأوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنهم سمعوا ما أنزل عليه من القرآن فانشرحت صدورهم للإسلام ، كانوا يلقون أسماعهم إلى شعراء الأوس والخزرج يصيخون إلى ما يلقى فى الأسواق من حكم وأشعار فكانوا يتذوقون البيان . فلما أنصتوا إلى آيات الله البينات أشرقت أفئدتهم بالأنوار ، فتلقفت يثرب وحى السماء فى شوق وإكبار ، وفتح القرآن العظيم أبواب يثرب على مصاريعها للوافد الكريم .

وقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فخرجوا إليه وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك .

لم يعرفوه يوم مقدمه ، أما الآن فهو أبو الجميع والروح السارى فى جنبات المدينة والأسوة الحسنة والأمل المشرق قد نزل حبه فى سويداء القلوب ، إذا رآه الصغار هرعوا إليه فرحين فهو يغمرهم بعطفه ، ويداعبهم ويلاعبهم وما ينهر أحدا منهم بل يزجى إليهم النصح فى حب غامر وحدب شديد ، وإذا مرّ بحى فسرعان ما تحل البهجة بالدور وتنشرح صدور الرجال والنساء والولدان ، فهو يفشى السلام ويعود المرضى ويواسى المكروبين ، وإذا دعاه عبد أن ينطلق معه إلى السوق أو إلى أى مكان فإنه ينطلق معه يحدثه فى ود فهو على خلق عظيم .

وآخى — صلى الله عليه وسلم — بين المهاجرين والأنصار ، فكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين بلحارث بن الخزرج أخوين ، وبلال مؤذن الرسول وأبو رويحة أخوين ، وقد ظل المهاجرون يذكرون هذه المؤاخاة حتى إنه لما دون عمر

ابن الخطاب الدواوين[١] بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا ، قال عمر لبلال :

— إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟

— مع أبى رويحة لا أفارقه أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عقد بينه وبينى .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدخل مجامع اليهود يجادلهم بالتى هى أحسن ، وكان أبو بكر الصديق يذهب إلى حيث كان اليهود يتدارسون كتابهم ويعرض عليهم الإسلام . وذات يوم دخل بيت المدارس على يهود فوجد منهم ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص :

— ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، والله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص لأبى بكر :

— والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم .

وثارت الدماء فى عروق أبى بكر وغضب لله غضبا شديدا ، فضرب وجه فنحاص ضربا أليما وقال :

— والذى نفسي بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله .

---

(١) ديوان : نصيب فى العطاء .

إن الرجل الحليم قد ثار لله ، وإنه وهو الرجل السهل اللين إذا ثار لله لا يبقى ولا يذر ، فبين جنبي جسمه النحيل قلب جسور وعزم من حديد .

وذهب فنحاص إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك .

فقال رسول الله — ﷺ — لأبي بكر :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال :

— ما قلت ذلك .

وضايق أبا بكر كذب عالم اليهود وحبرهم ، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبي بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق »(١) .

ونزل في أبي بكر الصديق وما بلغه في ذلك من الغضب : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »(٢) ، ثم قال سبحانه وتعالى فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم »(٣) .

---

(١) آل عمران ١٨١ (٢) آل عمران ١٨٦ (٣) آل عمران ١٨٧ ، ١٨٨

غضب أبو بكر وكان قويا فى غضبته ، وقد وضحت شخصيته القوية منذ ذلك اليوم ، فهو ليس بخوار وإنه لكفء لقتال الذين ارتدوا بعد موت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومنعوا أداء الزكاة ، ولم يكن بين صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غيره من يقول ما قال : « والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لحاربتهم عليه » .

وكان أبو بكر قليل الكلام يتكلم بخير أو يصمت ، وكان يرى نعيمان وهو يداعب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أو يداعب أصحابه عليه السلام فيبتسم . وقد حدث أن خرج أبو بكر فى تجارة إلى بصرى بعد أن استقر الإسلام فى مكة ومعه نعيمان وسويبط بن سعد بن حرملة — وكان مزاحا يفرط فى الدعابة — وكان نعيمان على الزاد فقال له سويبط :

— أطعمنى .

— لا ، حتى يجىء أبو بكر .

— أما والله لأغيظنك .

فمروا بقوم فقال لهم سويبط :

— تشترون منى عبدا ؟

— نعم .

— إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم إنى حر ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا علىَّ عبدى .

— بل نشتريه منك .

فاشتروه منه بعشر قلائص ، فجاءوا فوضعوا فى عنقه حبلا ، فقال نعيمان الذى طالما أضحك النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— إن هذا يستهزئ بكم وإنى حر لست بعبد .

فقالوا له فى استخفاف :

— قد أخبرنا خبرك .

فانطلقوا به ، فجاء أبو بكر فأخبره سويبط ، فاتبعهم فرد عليهم القلائص وأخذه .

وبلغ أبو بكر مسجد رسول الله — ﷺ — وصوت بلال يتردد فى جنبات المدينة ، فدخل وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم ، وكانت عيناه قد اعتادتا على الظلام فرأى عمر بن الخطاب فذهب ليجلس إلى جواره خلف محراب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه .

كان عمر جبارا فى الجاهلية ينزل أقسى العذاب بمن تنكر لدين الآباء ، فكان يضطهد عامر بن ربيعة وزوجه أم عبد الله بنت أبى حثمة فيمن يضطهد من جيرانه الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، فلما ضاق المسلمون باضطهاد قريش واستأذنوا رسول الله — ﷺ — فى الهجرة إلى الحبشة ، راحت أم عبد الله بنت أبى حثمة تتأهب للرحيل ، وذهب زوجها عامر فى بعض حاجاتها ، وأقبل عمر بن الخطاب ورأى أم عبد الله وقد عزمت على فراق الأهل والوطن ، فإذا برقة تغمر قلب الرجل الجبار فيقول فى صوت قد خلا من كل غلظة :

— إنه للانطلاق يا أم عبد الله .

— نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا .

— صحبكم الله .

ورأت له رقة لم تكن تراها ، ثم انصرف وقد أحزنه خروجهما فجاء عامر بحاجته تلك فقالت له :

— يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا .

— أطمعت فى إسلامه ؟

— نعم .

— فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

وكانت أم عبد الله أكثر فراسة من زوجها ؛ إنها لمست نفاسة معدن ابن الخطاب ، فلو أن صدأ الجاهلية قد جلى عن قلب عمر ، ولو أن عمر قد فقه فى الدين لكان من خير رجال الإسلام ، إنه لو أسلم لكان إسلامه فتحا ، فهو رجل ذو شكيمة لا يرام ما وراء ظهره .

وقد أثر خروج أم عبد الله وزوجها عامر فى نفس عمر تأثيرا عميقا : كان يفكر فى ذلك الدين الذى هان فى سبيله العذاب والاضطهاد وفراق الأهل والصحاب وهجرة الأوطان ، وكان يلقى سمعه أحيانا إلى صوت عقله ولكن شبابه الثائر كان يصده عن أن يصغى إلى ما يهمس فى وجدانه من تدبر وتفكير ، فكان يدفعه إلى الحانات ليرتمى فى أحضان الغيبوبة التى تريحه من آلام أفكاره ، وإلى حلقات المصارعة فى الأسواق ليفتن بقوته النساء .

وفى لحظات صحوه كان فكره يؤرقه ، كان الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله يعكر عليه صفو حياته ، إنه يتذكر المعذبين والمهاجرين وذلك الفراق الذى وقع بين الأب وبنيه والزوج وزوجته . إنها فتنة أصابت كل بيت ، ولن يخمد الثورة التى اندلعت فى مكة إلا قتل الصابئ الذى سفه أحلام الآباء وأثار الأبناء على الآباء وجرأ العبيد على السادة .

وخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله — ﷺ — ورهط من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله — ﷺ — عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله — ﷺ — بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام رجل من

قومه من بني عدى ابن كعب قد أسلم وكان يستخفى إسلامه فرقا من قومه ، فقال نعيم لعمر :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

وخفق قلب نعيم خوفا ؛ إنه يعلم جبروت عمر ، وأراد أن يكسر حدته وأن يخوفه إنقاذا لحياة رسوله الذى أخرجه من الظلمات إلى النور ، فقال له نعيم :

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بني عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا !

وأراد أن يوجه عمر وجهة غير وجهته إلى رسول الله — ﷺ — ليبعد عنه أذاه ، فقال :

— أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

لم يخن نعيم بن عبد الله سر سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فقد كان هدفه أسمى من أن يشى بهما . إنه يريد إنقاذ حياة رسول الله — ﷺ — وإن كل شىء دون حياة الرسول عليه السلام يهون ، وإن صلة الرحم التى بين عمر وأخته فاطمة قد يكون لها أطيب الأثر فى ثورة ابن الخطاب ، فلن يصل به غضبه إلى أن يقتل أخته بينما كان عازما عزما أكيدا على قتل من فرق أمر قريش وسفه أحلامها .

ودخل عمر بيت أخته وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم على

ما صنع فارعوى وقال لأخته :

ــ أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد !

قرأ عمر القرآن بقلبه فإذا بالغشاوة تنزاح عن عين بصيرته ، وطاب فؤاده فإذا بأنوار تنسكب فيه لتشع بالهداية فى أرجاء وجدانه ، وإذا بنسائم الألطاف تهب عليه ففاضت عليه الرحمة حتى دمعت عيناه فسالت عبراته لتغسل كل أدران ماضيه ، واستشعر كأنما قد خلق من جديد فرفع بصره عن الصحيفة وقال :

ــ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

وأسلم عمر فكان إسلامه فتحا ، وأراد أن يعلن إسلامه على الملأ فقال :

ــ أى قريش أنقل للحديث ؟

ــ جميل بن معمر الجمحى .

فغدا عليه حتى جاءه فقال له :

ــ أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟.

فقام جميل يجر رداءه واتبعه عمر ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته :

ــ يا معشر قريش ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

ويقول عمر من خلفه :

ــ كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

كانوا فى أنديتهم حول الكعبة فثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم وبلغ به الإعياء فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول :

ــ افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها

لكم أو تركتموها لنا .

كان المسلمون قد صاروا أربعين بعد إسلام عمر ، ولو كانوا ثلاثمائة رجل لما سكتوا على اضطهاد قريش . فبينا هم يوسعونه ضربا إذ أقبل العاص بن وائل عليه حلة حِبْرة حتى وقف عليهم فقال :

ــ ما شأنكم ؟

ــ صبأ عمر .

ــ فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أتريدون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلُّوا عن الرجل .

فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه ، وخرج عمر من الكعبة وانطلق إلى دار أبي جهل وكان يعلم أنه أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ــ ﷺ ــ ليخبره أنه قد أسلم ، وراح يضرب عليه بابه فخرج إليه أبو جهل فقال :

ــ مرحبا وأهلا يابن أختى . ما جاء بك ؟

ــ جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

ــ قبحك الله وقبح ما جئت به .

وفزعت قريش لإسلام عمر بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب ، فهما لا يهابان أحدا ويصران على أن يعلنا إسلامهما فى الكعبة وأن يمارس المسلمون شعائر دينهم فى بيت الله الحرام . ففشا أمر محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى قبائل قريش كلها ، وتأرجحت هيبة سادات البيت العتيق ، بل أصبح الخطر يهدد مكانة الكعبة قبلة قبائل العرب كلها والعروة الوثقى التى تربط العدنانيين والقحطانيين على السواء .

وبلغ الذين هاجروا إلى الحبشة نبأ إسلام عمر فأفعموا بالسرور وكانت أم

عبد الله بن أبى حثمة أكثرهم فرحا فقد رأت بعين بصيرتها جوهر عمر النفيس على الرغم مما كان يبدو عليه من غلظة ، وكانت تطمع فى إسلامه وإن سخر منها زوجها وقال : « فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب » . وها هو ذا عمر يهتدى إلى الطريق ويشرح الله صدره للإسلام فيصدق حدسها ، وقد شجع إسلام عمر كثيرا من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة على أن يعودوا إلى مكة ليقفوا إلى جوار إخوانهم فى وجه الطغيان .

وكانت هجرة عمر إلى المدينة نصرا ، فقد اتَّعد لما أراد الهجرة هو وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص بن وائل أن يتقابلوا عند التناضب على بعد عشرة أميال من المدينة وقالوا :

— أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه .

كان عمر لا يخشى أن يحبسه قومه فقد عزم على أن يخرج على رءوس الأشهاد ، ولكنه كان يخشى أن يحبس أحد صاحبيه . فلو علم أبو جهل بخروج عياش فلن يتردد فى حبسه ، ولو علم العاص بن وائل بخروج ابنه فسيرغمه على البقاء فى مكة قسرا . وخرج عمر وقد توشح سيفه وقال قولته المشهورة : «من يريد أن تثكله أمه فليقابلنى خلف هذا الجبل » . وسار ولم يجرؤ أحد على أن يعترض سبيله ، وأصبح هو وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب وحبس عنهما هشام وفتن فافتتن .

وقدما المدينة فنزلا فى بنى عمرو بن عوف فى قباء . وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة ، ولم يحاول أبو جهل أن يجادل ابن أخته عمر بن الخطاب أو أن يغريه بالعودة إلى مكة ، بل تقدم هو والحارث بن هشام إلى عياش فكلماه وقالا :

— إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فَرِقَّ لها .

فقال عمر لعياش :

ــ يا عياش إنه والله إن يردك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

ــ أبر قسم أمى ولى هنالك مال فآخذه .

فقال عمر فى صدق :

ــ والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عليه إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك قال له :

ــ أما إذ فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم فانج عليها .

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :

ــ يا بن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

ــ بلى .

فأناخ وأناخوا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا وقالا :

ــ يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

وفتناه فافتتن ، فكان المسلمون فى المدينة يقولون :

ــ ما الله قابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم !

وكان الذين افتتنوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قول المسلمين وقول الذين افتتنوا فى أنفسهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب

جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون »(١) .

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص ، فلما أتته جعل يقرؤها بذى طوى(٢) ويعيد قراءتها ولا يفهمها حتى قال :

ـــ اللهم فهمنيها .

فألقى الله تعالى في قلبه أنها أنزلت فيهم وفيما كانوا يقولون في أنفسهم ويقال فيهم ، فرجع إلى بعيره فجلس عليه فلحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو بالمدينة .

وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهمَّ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام : لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة .

فذهب عمر إلى النبي ـــ ﷺ ـــ ليخبره بالذى رأى ، فما راعه إلا بلال يؤذن فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ قد سبقك بذلك الوحى .

وكان بلال يؤذن على أطول بيت حول المسجد وكان لامرأة من بني النجار ، وكان يأتي بسَحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ثم قال :

---

(١) الزمر : ٥٣ ـــ ٥٥ (٢) طوى : مكان بأسفل مكة .

— اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك .

وما كان يتركها ليلة واحدة حتى جاء نصر الله والفتح .

وكانت غزوة بدر وكان رجال من بنى هاشم فى صفوف المشركين قد خرجوا مع قريش مستكرهين وهم يخفون إسلامهم حتى لا ينكشف أمرهم ، فهم مخابرات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكان العباس بن عبد المطلب كبيرهم وما كان من الحكمة أن يكشف النبى عليه السلام أمرهم ، فقال لأصحابه :

— إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كَرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .

فقال أبو حذيفة :

— أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألجمنه(١) السيف .

فبلغت رسول الله — ﷺ — فقال لعمر بن الخطاب :

— يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله — ﷺ — بالسيف ؟

إنه لأول يوم كنى فيه رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب بأبى حفص ، فقال عمر :

— يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

وانبلجت الحقيقة لعينى أبى حذيفة فكان يقول :

---

(١) لألجمنه : لأطعنن لحمه بالسيف ولأخالطنه به .

ـــ ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة .

فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وانقضت غزوة بدر ولكن لم تنقض أحقادها ، فقد مر سعيد بن العاص بعمر ابن الخطاب فقال له عمر :

ـــ إنى أراك كأن فى نفسك شيئا : أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلته لم أعتذر إليك عن قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه (بقرنه) فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه علىّ فقتله .

فذهب أبو الحسن بأحقاد بدر كلها .

وبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

ـــ هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا وحزرنا (قدّر عددنا تخمينا) للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .

ـــ فأدخله علىّ .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

ـــ ادخلوا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ وعمر آخذ حمالة سيفه فى عنقه قال :

ــ أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

ــ أنعموا صباحا .

ــ قد أمرنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

ــ أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

ــ فما جاء بك يا عمير ؟

ــ جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

كان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فقال عليه السلام :

ــ فما بال السيف فى عنقك ؟

ــ قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟

ــ أصدقنى ما الذى جئت له ؟

ــ ما جئت إلا لذلك .

ــ بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دَيْن علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

فظهر الدهش فى وجه عمير ثم قال :

ــ أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا

المساق .

ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

وراح عمر ينظر إلى عمير فى دهش ، فالرجل الذى كان جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، قد أشرق قلبه بالأنوار وأصبح يلتمس من رسول الله أن يأذن له أن يقدم مكة فيدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ـــ ﷺ ـــ وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذاهم فى دينهم كما كان يؤذى أصحاب رسول الله ـــ ﷺ .

* * *

وكانت غزوة أحد وقتل وحشى حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، فلما فتح رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة هرب وحشى إلى الطائف فمكث بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليسلموا سدت فى وجهه السبل فقال :

ـــ ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد .

وإنه لفى ذلك من همة إذ قال له رجل :

ـــ ويحك ! إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه وتشهد بشهادته .

فلما قال له ذلك خرج حتى قدم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة ، فلم يرعه عليه السلام إلا به قائما على رأسه يشهد بشهادة الحق ، فلما رآه قال :

ـــ أوحشى ؟

ـــ نعم يا رسول الله .

ـــ اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة .

ـــ كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم

بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق ، فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق(١) ، يهد الناس بسيفه هدا ما يقوم له شيء ، فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سِباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له :

— هلم إلى يا بن مقطعة البُظور .

فضربه ضربة كان ما أخطأ رأسه ، وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثُنّته حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغُلب ، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق .

— ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرينك .

فكان يتنكب رسول الله — ﷺ — فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرج وحشى معهم وأخذ حربته التى قتل بها حمزة ، فلما التقى الناس رأى مسيلمة الكذاب قائما فى يده سيفه وما يعرفه ، فتهيأ له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلاهما يريده ، فهز حربته حتى إذا رضى منها دفعها عليه فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف فربك أعلم أيهما قتله ، فإن كان قتله فقد قتل خير الناس بعد رسول الله — ﷺ — وقد قتل شر الناس .

ولم يستطع وحشى أن يمتنع عن الشراب فلم يزل يُحد فى الخمر حتى خُلع من

---

(١) الجمل الأورق : الذى لونه بين الغبرة والسواد ، سماه كذلك لما عليه من الغبار .

الديوان ولم يعد له عطاء مثل غيره من المسلمين ، فكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول :

— وقد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة .

ورمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله — ﷺ — يوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وشجه عبد الله بن شهاب الزهرى فى جبهته ، وجرح ابن قمنة وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، ووقع رسول الله — ﷺ — فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . وأوسع ابن قمئة الأرض إذاعة أن محمدا قتل فقعد المسلمون عن القتال ، وانتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال :

— ما يُجلسكم ؟

— قتل رسول الله — ﷺ .

— فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله — ﷺ .

ثم استقبل القوم يقاتل قتال الأسود الكواسر ، يتلقى الطعنات فى صبر ، ولم يسقط شهيدا إلا بعد أن ضرب بسيوف المشركين سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته عرفته ببنانه .

وكان أول من عرف رسول الله — ﷺ — بعد الهزيمة ، وقول الناس قتل رسول الله — ﷺ — كعب بن مالك ، عرف عينيه تضيئان من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله — ﷺ .

فأشار إليه رسول الله — ﷺ — أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله

— ﷺ — أخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله — ﷺ — ورفعه طلحة بن عبد الله حتى استوى قائما . ومص مالك بن سنان ، أبو أبى سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله — ﷺ — وانطلق رسول الله عليه السلام نحو الشعب معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، وجاء أبو عبيدة بن الجراح ونزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله — ﷺ — فسقطت ثنيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين .

ثم إن أبا سفيان بن حرب لما أراد الانصراف أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته فقال :

— إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعلُ هبل .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل لا سواه ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان :

— هلم إلى يا عمر .

فقال رسول الله — ﷺ — لعمر :

— ائته فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان :

— أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟

— اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر .

عرف أبو سفيان قائد قريش أن رسول الله — ﷺ — لم يقتل ، فلماذا لم يأمر

باستئناف القتال حتى يقضى على المسلمين ونبى الإسلام ويستأصل ذلك الخطر الذى بات يهدد قريش فى المدينة؟ إن كان الجهد قد نال من المسلمين، وإن كان قد مسهم جراح فقد مس الكافرين جراح مثلها، وما كانت نتائج المعركة إذا ما استؤنفت مضمونة، فآثر أبو سفيان أن يعود ظافرا منتصرا وإن لم يكن نصرا حاسما من أن يخاطر مخاطرة قد تكون نتائجها وبالا عليه وعلى قومه.

وبعد ست سنوات من الهجرة خرج رسول الله — ﷺ — عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر. وانطلق المسلمون معتمرين حتى إذا بلغوا الحديبية أمر رسول الله — ﷺ — الناس بالنزول فنزلوا، ومشت السفارات بين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبين قريش فقالت قريش:

— والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال:

— يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

وكان صلح الحديبية، وثار عمر بن الخطاب ثورة عارمة، إنه ينكر الصلح ولا يقره فأتى أبا بكر فقال:

— يا أبا بكر أليس برسول الله؟

— بلى.

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

— يا عمر الزم غَرْزة ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

— وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ألست برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

— أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

وفى أثناء العودة إلى المدينة نزلت سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما »(١) . وعلم عمر أنه تسرع لما أنكر على رسول الله — ﷺ — الصلح ، ثم جاء فتح مكة فتقاصرت نفس عمر وأرهقه ضميره المرهف ، فما زال يتصدق

---

(١) الفتح ١ ، ٢

ويصوم ويصلي ويعتق من الذى صنع يوم الحديبية ، مخافة كلامه الذى تكلم به .

وأجمع رسول الله — ﷺ — المسير إلى مكة فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله — ﷺ — من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب وجعل لها جُعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به .

وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال :

— أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة خليقة بنى أحمد فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على ابن أبي طالب :

— إنى أحلف بالله ما كُذِب رسول الله — ﷺ — ولا كُذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجد منه قالت :

— أعرض .

فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله — ﷺ — فدعا رسول الله — ﷺ — حاطبا فقال :

— يا حاطب ما حملك على هذا ؟

— يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت وما بدَّلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهُرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب :

— يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

— وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فأنزل الله تعالى فى حاطب : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدو كم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاء كم من الحق يخرجون الرسول وإيا كم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تُسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفو كم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولاد كم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك تو كلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد »(١) .

وذات يوم استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن بالحجاب ، فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل عمر ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يضحك ، فقال عمر :

---

(١) الممتحنة ١ — ٦

— أضحك الله سنك يا رسول الله .

— عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن بالحجاب .

— فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله .

ثم قال عمر :

— يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟

— نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— إيها يا بن الخطاب ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك .

* * *

ودخل مسجد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عثمان بن عفان ذو النورين تعلوه السكينة والوقار ؛ إنه رجل تستحى منه الملائكة ، وكان عثمان جسرا من الجسور التى تربط بنى هاشم ببنى أمية ، فأمه أروى بنت عامر بن كريز وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وكانت البيضاء وعبد الله أبو رسول الله — ﷺ — توأمين ، وكان أبوه أبا العاص بن أمية فهو هاشمى من جهة أمه وأموى من جهة أبيه .

وكان عثمان يألف أبا بكر ، فلما أسلم أبو بكر دعا عثمان إلى الإسلام فدخل فيه ، وكان عثمان فى الرابعة والثلاثين لما اعتنق الدين الجديد ، وقد تزوج رقية بنت رسول الله — ﷺ — وقد اضطهده عمه الحكم بن العاص وأنزل به سوط عذاب ، فكان عثمان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية إلى الحبشة معه امرأته رقية ، وتوطدت الصداقة بينه وبين النجاشى ولكنه لما سمع بأن الله أعز الإسلام

بعمر بن الخطاب عاد إلى مكة ليكون إلى جوار رسول الله ـ ﷺ ـ ثم هاجر عثمان إلى المدينة فنزل على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت. ولما آخى رسول الله ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار آخى بين عثمان بن عفان لكماله وحسن خلقه وأوس بن ثابت. وقد آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾[1]. فلم يعد من آخى بينهما الرسول يرث أحدهما الآخر، بل أصبح الميراث من حق أولى الأرحام، ثم جعل الله المؤمنين كلهم إخوة فى التوادد وشمول الدعوة، فقال جل من قائل: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[2].

وكانت غزوة بدر وتخلف عنها عثمان بن عفان، فقد كان إلى جوار زوجه رقية التى كانت تجود بأنفاسها. وجاء خبر النصر وعثمان يسوى التراب على ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ فقد ماتت ذات الهجرتين قبل أن تسعد روحها الطاهرة بالبشرى. وأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ على المدينة وقد شاع فيها السرور بنصر الله، ودخل مسجده وصلى فيه ركعتين شكرا لله، ثم دخل على فاطمة الزهراء فوجدها تسح الدموع على رقية الحبيبة فاعتصر الحزن قلبه وجعل يمسح دموع الزهراء بطرف ثوبه.

وضرب رسول الله ـ ﷺ ـ لعثمان بسهمه فقال عثمان:

ـ وأجرى يا رسول الله؟

ـ وأجرك.

---

(١) الأنفال ٧٥ (٢) الحجرات ٦٠.

وفر عثمان فيمن فر يوم أحد وعفا الله عنه وغفر له ، وقد أمره رسول الله — ﷺ — أن يضرب عنق الحارث بن سويد . وكان الحارث منافقا فخرج يوم أحد مع المسلمين ، فلما التقى الناس عدا على المجذر بن ذياد البلوى وقيس بن زيد فقتلهما ، ثم لحق بمكة بقريش ، وكان رسول الله — ﷺ — قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن ظفر به ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجُلاس بن سويد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فبينا رسول الله — ﷺ — فى نفر من أصحابه إذ خرج الحارث بن سويد من بعض حدائق المدينة وعليه ثوبان فى لون الدم ، فأمر به رسول الله — ﷺ — عثمان فضرب عنقه .

وبعث رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يوم الحديبية يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه إبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله — ﷺ — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله — ﷺ — ما أرسله به ، فقالوا له حين فرغ من رسالة رسول الله — ﷺ — إليهم :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ —

واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله — ﷺ — والمسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فدعا رسول الله — ﷺ — الناس للبيعة ، فكانتَ بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكانت البيعة على ألا يفروا ، ثم أتى رسول الله — ﷺ — أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

وفتحت مكة ثم تأهب المسلمون للخروج إلى تبوك ، وحض رسول الله — ﷺ — أهل الغنى على النفقة والحملان فأنفق عثمان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

وتوضأ أبو موسى الأشعرى فى بيته ذات يوم ثم خرج فقال :

— لألزمن رسول الله — ﷺ — ولأكونن معه يومى هذا .

فجاء المسجد فسأل عن النبى — ﷺ — فقالوا :

— خرج ووجَّـه ههٰنا .

فخرج على أثره يسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلس عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله — ﷺ — حاجته فتوضأ ، فقام أبو موسى إليه فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط حافة البئر وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر ، فسلم أبو موسى عليه ثم انصرف ، فجلس عند الباب فقال :

— لأكونن بواب رسول الله — ﷺ .

فجاء أبو بكر فدفع الباب فقال أبو موسى :

— من هذا ؟

— أبو بكر .

— على رسلك .

ثم ذهب أبو موسى فقال :

— يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فأقبل أبو موسى حتى قال لأبى بكر :

— ادخل ورسول الله — ﷺ — يبشرك بالجنة .

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ـــ ﷺ ـــ ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى ـــ ﷺ ـــ وكشف عن ساقيه .

ثم رجع أبو موسى فجلس فإذا إنسان يحرك الباب فقال :

ـــ من هذا ؟

ـــ عمر بن الخطاب .

ـــ على رسلك .

ثم جاء أبو موسى إلى رسول الله ـــ فسلم عليه فقال :

ـــ هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

ـــ ائذن له وبشره بالجنة .

فجاء أبو موسى فقال له :

ـــ ادخل وبشرك رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالجنة .

فدخل فجلس مع رسول الله عن يساره ودلى رجليه فى البئر .

ثم رجع أبو موسى فجلس فجاء إنسان يحرك الباب فقال :

ـــ من هذا ؟

ـــ عثمان بن عفان .

ـــ على رسلك .

فجاء أبو موسى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره فقال :

ـــ ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .

فجاء أبو موسى فقال له :

ـــ ادخل وبشرك رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالجنة على بلوى تصيبك .

ودخل عثمان بن عفان فغطى رسول الله ـــ ﷺ ما انكشف عن ركبتيه .

بشر رسول الله ـــ ﷺ ـــ عثمان بالجنة ، فلم يمش عثمان فى الأرض مرحا بل

كان يرتجف من خشية الله ، وكان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له :

— تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟

— إن رسول الله — ﷺ — قال : إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

كان عثمان بن عفان ورعا تقيا حليما أواها دمث الخلق ، زوجه رسول الله — ﷺ — ابنتين ؛ فلما ماتت أم كلثوم قال له ﷺ :

— لو كان عندنا ثالثة لزوجناكها .

وبشره رسول الله — ﷺ — بالجنة ، ولكن لما كثر ظلم الناس له أرادوا أن يبخسوه فضله وأن يسلبوه محاسنه ، فقد جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

— هؤلاء قريش .

— فمن الشيخ فيهم ؟

— عبد الله بن عمر .

— يا بن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه . هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟

— نعم .

— الله أكبر !

ـــ تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ـــ ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان .

* * *

وهبط بلال بعد أن أذن بالفجر من فوق أعلى بيت بجوار مسجد الرسول ، وخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ أطيب رائحة من المسك فقام أقرب الناس منه فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم . وتقدم عليه السلام إلى المحراب وقد تواضع لله ووقف يصلي وقد اصطف خلفه أصحابه قد ملئت أفئدتهم تقوى وازدادوا علما فازدادوا من ربهم قربا ، تجنبوا محارم الله وأدوا فرائض الله وعملوا بالصالحات من الأعمال ، ووقر فى وجدانهم أن الأجل دون الأمل ، فبادروا الأجل بالعمل ليزدادوا فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة ، وينالوا فى آجل العقبى بصالح أعمالهم من ربهم القرب والعز والفوز الأكبر .

كانوا رعاة أو تجارا وكان من المفروغ منه أن يمروا كأجدادهم فى قافلة الحياة دون أن تستشعر بهم البشرية ، ولكن القرآن العظيم وأسوة رسول الله ـــ ﷺ ـــ الحسنة جعلت منهم أعظم حكام وأعدل قضاة وأشهر قواد ، وقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وأطهره ، فقد أصبحوا على يقين من أنهم لم يخلقوا عبثا ولن يتركوا سدى ، وأن الله سائلهم عما هم فيه وعما عملوا به ، فقد قال لهم رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ومعلمهم الأكبر : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل به ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين

اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه » .

أرهفت حواسهم فلم يكن شيء أحب إليهم من الإصلاح ولا أبغض إليهم من الفساد ، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن تنكشف أقنعتهم فيما بينهم وبين الله في مجمع الأشهاد ، فجعل الله لهم نورا يمشون به في الناس ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

كانوا يعملون بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق ، فكان حكامهم حكماء ، وأموالهم في أيدي السمحاء ، يأمرون بتقوى الله ويخلصون العمل لله ، ويخلطون الرغبة بالرهبة ، يأمرون بما أمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ، يعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن في العزلة راحة من خلطاء السوء ، الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »(١) .

---

(١) آل عمران ١١٠

٢

كان طسم وجديس من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا وثمارا وحدائق وقصورا . وكان ملك طسم غشوما لا ينهاه شيء عن هواه ويقال له عُمْلوق ، وكان مضرا لجديس مستذلا لهم حتى كانت البكر من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعَها ، وكان السبب فى ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هُزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها ، فأمر عملوق ببيعها وأخذ زوجها الخمس من ثمنها، فقالت شعرا تتظلم منه فأمر ألا تتزوج منهم امرأة حتى يفترعها ، فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس وهى غفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود ، فافتضها عملوق فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس :

ــ قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغي للكلاب أن تعافه فأطيعونى ، فإنى أدعوكم إلى عز الدهر .

ــ وما ذاك ؟

ــ أصنع للملك وقومه دعوة ، فإذا جاءوا نهضنا إليهم بأسيافنا فنقتلهم .

فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، ودعوا عملوقا وقومه فلما حضروا قتلوهم فأفنوهم . وقتل الأسود عملوقا وقد حسب أنه قد استراح من طسم وظلمهم ، ولكن رباح بن مرة بن طسم أفلت فأتى حسان بن تبع مستغيثا ، فنهض حسان فى حمير لإغاثته حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل ، قال لهم رباح :

ــ إن لى أختا مزوجة فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر

منها ، وإنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل وأخاف أن تنذز القوم .

فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها فى يده ويسير كل كأنه خلفها ، ففعلوا وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس :

ـــ لقد سارت إليكم حمير ، وإنى أرى رجلا من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها أو نعل يخصفها .

فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به ، وصحبهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم وضرب حصونهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلى طىء فأقام بها ودعا تبع باليمامة أخت رباح التى أبصرتهم فقلع عينها ، وكانت تلك البلد جَوّ فسميت باليمامة اسم تلك المرأة .

وبقيت اليمامة بعد طسم يبابا لا يأكل ثمرها إلا عوافى الطير والسباع ، حتى نزلها بنو حنيفة وكانوا بعثوا رائدهم عبيد بن ثعلبة الحنفى يرتادهم فى البلاد ، فلما أكل من ذلك الثمر قال :

ـــ إن هذا لطعام .

وانتشرت النصرانية فى الحبشة بعد أن ازدهرت فى الشام ، فأراد قيصر أن يتصل نصارى الشمال بنصارى الجنوب عبر جزيرة العرب وأن يقوض البيت العتيق الذى يجمع قبائل العرب لعل راية النصرانية ترفرف على طول الطريق من الحبشة إلى روما ، فأمر قيصر النجاشى أن يغزو جزيرة العرب وأعانه على ذلك ، فاستولت الحبشة على اليمن ، ثم خرج أبرهة وأصحاب الفيل ليهدموا الكعبة فجعل الله كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

وانسحبت فلول جيش أبرهة إلى اليمن وظل الاحتلال الحبشى جاثما على أرض اليمن ، فخرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا

إليه ما هم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويبعث إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فأعرض عنه قيصر ولم يجد عنده شيئا مما يريد .

وانطلق سيف بن ذى يزن إلى كسرى وكانت العداوة ناشبة بين الفرس والروم ، فأمد كسرى سيف بن ذى يزن بالمقاتلين فانتصر سيف والفرس على الحبشة وصارت اليمن منطقة نفوذ للفرس ، فكان الأكاسرة يبعثون قوافل التجارة من فارس إلى اليمن فى حماية ملوك اليمن .

وقد أجار هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة قافلة لكسرى ، فلما وفد هوذة عليه توّجه وملّكه فأصبح هوذة ملكا على اليمامة .

وكانت اليمن أكثر بلاد العرب حضارة للصلة الوثيقة التى كانت بينها وبين فارس ، فلما بعث الله رسوله — ﷺ — قال أعداؤه :

— إنما يعلمه رجل من اليمامة .

وسمعت اليمن بالدين الجديد ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فقد جاء الطفيل ابن عمرو الدوسى إلى الحرم وسمع القرآن من النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فشرح الله صدره إلى الإسلام ، فلما عاد إلى قومه أسلمت دوس وأسلم أبو هريرة ، وألقى الناس أسماعهم إلى قرآن محمد ، وكان مسيلمة يصغى إلى ما يتلى عليه فكان الحسد ينهش فؤاده ويتمنى لو أن ذلك النور قد نزل عليه ، وبقيت اليمن فى ظلمات الجاهلية فخورا بما أتاها من فارس ، حتى إذا ما كان صلح الحديبية أرسل عليه السلام الرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام .

وخرج سليط بن عمرو أخو سهيل بن عمرو من المدينة يحمل كتاب رسول الله — ﷺ — إلى هوذة بن على ملك اليمامة الذى توجّه كسرى ، فلما مثل بين يديه قدم إليه الكتاب ففضه هوذة وراح يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على

من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » .

وكان عند هوذة عظيم من النصارى فقدم إليه الكتاب ، فلما انتهى من قراءته رفع رأسه إلى الملك وقال له :

— لم لا تجيبه ؟

— أنا ملك قومى ولئن اتبعته لم أملك .

— بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل .

وأطرق الملك ونظر إليه سليط طويلا ، إنه يخاف على ملكه وإن سليط ليعرفه جيدا فلطالما جاء إلى اليمامة ودخل عليه ، وسادت فترة صمت ثم قال له سليط :

— تسويد كسرى إياك هو أعظم حائل بينك وبين الإسلام ، إنما السيد من متع بالإيمان ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا آمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهى عنه . آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان فإن فى عبادة الله الجنة وفى عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيننا كشف الغطاء وهول المطلع .

فقال هوذة فى حيرة :

— سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلىّ رأيى فأجيبك .

لم يكن يخطر على قلب هوذة أن أتباع ذلك الدين الجديد سيقوضون ملك من توجه ، وما كان بقادر على أن يتصور أن جزيرة العرب تستطيع أن تنجب رجلا فى مكانة كسرى ، فقد كانت نظرته دنيوية وما قدر الروح الجديدة التى نفخها

الإسلام فى أتباعه حق قدرها .

وأراد هوذة أن يكسب مكاسب دنيوية فرد على كتاب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ردا دون رد ، فكتب إلى النبى — ﷺ — : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك » .

وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى — ﷺ — فأخبره ، وقرأ النبى — ﷺ — كتابه وقال :

— لو سألنى سبابة[1] ما فعلت . باد وباد ما فى يديه .

وسمع مسيلمة بما كان فراح يحلم أنه بعث رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى دينه !

وجاء نصر الله والفتح ، فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من فتح مكة جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هوذة قد مات .

ورأى رسول الله — ﷺ — فى المنام أن فى يده سوراين من ذهب ، فأهمه شأنهما فأوحى الله إليه فى المنام أن ينفخها ، فنفخهما فطارا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده .

وراحت الوفود ترد إلى المدينة بعد أن تم فتح مكة واعتنقت الإسلام ، فجاء وفد بنى حنيفة ومعهم مسيلمة وجعلوه فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا .

فأمر له — ﷺ — بمثل ما أمر به لواحد من القوم — خمس أواق من فضة —

---

(١) سبابة : قطعة من الأرض .

وقال :

ــ أما إنه ليس بشر كم مكانا .

وكان نهار الرجَّال بن عُنفوة قد هاجر إلى النبى ﷺ ــ وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه ــ ﷺ ــ معلما لأهل اليمامة ، وما كان نهار الرجال صادق الإيمان فقد كان يحب الدنيا ، وما كان بقادر على زجر نفسه الأمارة بالسوء .

وعاد بنو حنيفة إلى اليمامة فراح مسيلمة يزعم أن رسول الله ــ ﷺ ــ أشركه معه فى الأمر ، وقال لمن وفد معه :

ــ ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له : أما إنه ليس بشركم مكانا ، ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر .

وعاد مسيلمة إلى المدينة مع وفد من قومه ، فلما انتهى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله أن يشركه معه فى النبوة ، وكان فى يد رسول الله ــ ﷺ ــ قطعة من جريد ، فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتك ، وإنى لأراك الذى منه رأيت .

تذكر رسول الله ما رأى فى المنام من أمر السوارين ، إن مسيلمة أحد الكذابين وإنه لا يستحق أن يطيل رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الوقوف معه ، وكان قد خرج معه ثابت بن قيس بن شماس فقال عليه السلام :

ــ وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى .

ثم انصرف ــ صلوات الله وسلامه عليه .

وانضم نهار الرجَّال إلى مسيلمة فقد آثر الدنيا على الآخرة ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . شهد له أنه سمع محمدا ــ ﷺ ــ يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

وضرب حرما باليمامة فنهى عنه وأخذ الناس به فكان محرما ، فوقع فى ذلك

الحرم قرى الأحالف أفخاذ من بنى أسيد ، وكانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم فى الحرم .

والأحالف سيحان ونمارة ونمر والحارث ، فإن أحصبوا أغاروا على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم ملجأ ، فإن اقتفوا أثرهم دخلوا الحرم فيحجم عنهم الطلب ، وإن أحجموا عن مطاردتهم فذلك ما يريدون ، فكثر ذلك منهم ، فرفع الناس الأمر إلى مسيلمة فقال :

ــ أنتظر الذى يأتى من السماء فيكم وفيهم .

ثم قال لهم :

ــ « والليل الأطحم . والذئب الأدلم . والجذع الأزلم . ما انتهكت أسيد من محرم » .

ــ أما مَحرمٌ استحلال الحرم وفساد الأموال ؟

وشجع ذلك بنى أسيد فعادوا للغارة وعادوا للعدوان ، فرفع الأمر إلى مسيلمة فقال :

ــ أنتظر الذى يأتينى .

فقال : « والليل الدامس . والذئب الهامس . ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » .

ــ أما النخيل المرطبة فقد جدُّوها ، وأما الجدران اليابسة فقد هدموها .

ــ اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم .

وكان يحب أن يتألف بنى تميم فكان يقرأ لأتباعه : « إن بنى تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيينا بإحسان . نمنعهم من كل إنسان . فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن » .

وكان أصحابه يتلون فى دورهم قرآنه : « والمبذرات زرعا . والحاصدات

حصدا . والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا . والخابزات خبزا . والثاردات ثردا . واللاقمات لقما . إهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر . وما سبقكم أهل المدر . ريفكم فامنعوه . والمعتز فآووه . والباغى فناوئوه » .

وجاء طلحة النمرى اليمامة فقال :

— أين مسيلمة ؟

— مه ، رسول الله .

— لا حتى أراه .

فلما جاءه قال :

— أنت مسيلمة ؟

— نعم .

— من يأتيك ؟.

— رحمن .

— أفى نور أو فى ظلمة ؟

— فى ظلمة .

— أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

والتف حول مسيلمة الذين غرتهم الدنيا فأرادوا إيهام الناس أن الصلات طيبة بين رسول الله — ﷺ — وبينه فأشار على الكذاب أن يكاتب رسول الله — ﷺ — فبعث إلى المدينة رسولين يحملان كتابه ، فدخلا على الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وقدما إليه الكتاب ، فدفعه عليه السلام إلى من يقرأه فقرأ :

— من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ سلام عليك ، أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن

قريشا قوم يعتدون .

فالتفت عليه السلام إلى الرجلين وقال :

ـــ فما تقولان أنتما ؟

ـــ نقول كما قال .

ـــ أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وكتب رسول الله ـــ ﷺ ـــ كتابا إلى مسيلمة بعث به حبيب بن زيد ، وأم حبيب نسيبة بنت كعب أم عمارة وقد شهدت بدرا هي وزوجها ، وابناها حبيب وعبد الله ، فانطلق حبيب إلى اليمامة فرأى عجبا : رأى عبد الله بن النواحة يؤذن للنبي ـــ ﷺ ـــ ويشهد فى الأذان أن محمدا رسول الله ويشهد لمسيلمة ، ورأى الناس يترنحون من الشرب فقد أباح لهم مسيلمة الخمر ، وانتشر فى أرجاء اليمامة الفسق بعد أن أحل لهم الزنا .

ودخل حبيب على مسيلمة وقد أحاط به أنصاره ، فقدم إليه كتاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فراح يقرأ :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

واكفهر وجه مسيلمة ، والتفت إلى حبيب وقد ملىء غضبا وقال له :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

ـــ نعم .

ـــ أفتشهد أنى رسول الله ؟

ـــ لا أسمع .

فراح يقطع يده ويقول :

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أفتشهد أنى رسول الله ؟

— لا أسمع .

فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات فى يده لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله — ﷺ — آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع .

وبلغ نُسيبة ما فعل مسيلمة بابنها فراحت تتأهب للخروج مع المسلمين لمحاربة الكذاب .

٣

صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي وعلي يمشي إلى جانبه ، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان فحمله على عاتقه وقال :

ـــ بأبي[1] شبيه بالنبي لا شبيه بعلي .

وعلي يضحك ، فما من أحد رأى الحسن إلا وقال إن الحسن يشبه جده عليه السلام ، وكان الحسن إذا نادى أباه يقول :

ـــ يا أبا الحسن .

وكان الحسين ينادي أباه بقوله :

ـــ يا أبا الحسن .

وكانا يقولان لرسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ يا أبتاه .

وأتم الحسن لعبه فذهب إلى المسجد فوجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحدث أصحابه ، فلما رأى عليه السلام الحسن استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وفتح له ذراعيه فارتمى الحسن في أحضانه ، فجعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقبله ثم قال :

ـــ اللهم إني أحبه فأحبه .

وقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ والحسن يسير إلى جواره حتى دخل على ابنته فاطمة الزهراء ، فأشرق وجهه بابتسامة وخفق قلبه في حب ، فالزهراء تذكره بخديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، بالأحبة الذين رحلوا وخلفوا في القلب الأحزان .

---

(١) أي أفديه بأبي

ومال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل زينب بنت فاطمة ، الصغيرة التى حملت اسم خالتها الراحلة فاستشعر عواطف جياشة تمور فى صدره . عواطف من الحب والأسى ، من الشفقة والحنان ، فابتسامته التى ترتسم على شفتيه كلما وقعت عيناه على زينب الصغيرة وأم كلثوم تمتزج بالدموع ، فهو وإن كان رسول الله الذى يعد نفسه للموت وما بعد الموت فهو إنسان .

وجاء الحسين فلما رأى جده فى الدار نادى فى فرح فياض :

ـ أبتاه .

فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبله ثم حمله على عاتقه وجعل يداعبه ، وفاطمة الزهراء تنظر فى سرور تكاد الدموع أن تبلل عينيها من الفرح . كانت الزهراء كأبيها حليفة الأحزان ، وما كانت تحس سعادة حقه إلا فى تلك الأوقات التى يمضيها أبوها العظيم فى دارها ، فالسرور كان يشيع فى كل من فى البيت المتواضع الذى كان يخلو من أى أثاث وقد خلا من كل ترف .

لم يكونوا فقراء بعد أن فتح الله عليهم خيبر والطائف ، ولكنهم كانوا كرماء ينفقون على الفقراء والمساكين كل ما يصل إليهم ، فقد كانوا أكثر ثقة بما فى يد الله مما فى أيديهم ، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كانت فاطمة بضعة منه وكانت قلبه وروحه التى بين جنبيه ، فكان إذا قدم من سفر يصلى ركعتين لله ثم يبدأ بزيارتها قبل أن يعود إلى داره ، وكان كل صباح يطرق باب دارها ويقول :

ـ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وكان بكاء طفل من أطفالها فى الليل يطير النوم من عينيه ، فكان إذا سمع بكاء الحسن أو الحسين يهرع إلى دار الزهراء ويحمل الصغير بين يديه فى حنان دافق

وهو يقول للزهراء فى عتاب لطيف :

ـــ ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى !

وأقبلت أمامة بنت زينب ، فهفا قلب رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إليها . إنه يحبها بكل جوارحه وقد أعلن أكثر من مرة أنها أحب أهل بيته إلى فؤاده ، وكان يحملها فى الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها ، وكان قلبه الكبير يسع حب أبنائه وحب بناته وحب أحفاده وحب أصحابه وحب المسلمين وحب المؤمنين بل وحب البشر أجمعين ، فما بعث إلا رحمة للعالمين .

وأذن بلال المغرب فخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى المسجد فرأى أبا الدرداء يمشى أمام أبى بكر فقال :

ـــ يا أبا الدرداء أتمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟! ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبى بكر .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

ـــ ما أحد عندى أعظم من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته .

ويقول :

ـــ لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام .

ويقول :

ـــ أبو بكر وعمر بمنزلة السمع والبصر .

كان أبو بكر ملكا فى زى مسكين ، وكان إذا مُدح قال :

ـــ أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون .

وقدم عمر بن الخطاب أبيض اللون يعلوه حمرة ، أصلع شديد حمرة العينين فى عارضيه خفة ، وقد قال رسول الله — ﷺ — فيه :

— عمر معى وأنا مع عمر ، والحق مع عمر حيث كان .

وقال عليه السلام :

— يا عمر إنك لذو رأى رشيد فى الإسلام .

— وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— قال لى جبريل ليبكين الإسلام على موت عمر .

وقال :

— أبو بكر وعمر منى بمنزلة هارون من موسى .

وكان عمر يقول :

— لولا خوف الحساب لأمرت بكبش يشوى لنا فى التنور .

وجلس عثمان فى المسجد لسانه رطب بذكر الله لا يرفع عينيه فى الناس ، وقد قال رسول الله فيه :

— عثمان أشد أمتى حياء .

وقال لابنته أم كلثوم لما زوجها لعثمان بن عفان :

— إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

إنه يطعم الناس أطيب الطعام ويدخل بيته يأكل الخل والزيت وهو الغنى الذى يوسع على الناس ، فقد أصاب الناس قحط فى خلافة أبى بكر الصديق ، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبى بكر وقالوا :

— يا خليفة رسول الله ، السماء لم تمطر والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

— انصرفوا واصبروا فإنى أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج عنكم .

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيرا لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا . فلما جعلها فى داره جاء التجار فقال لهم :

ــ ما تريدون ؟

ــ إنك تعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذى وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس .

ــ حبا وكرامة ، كم تربحونى على شرائى ؟

ــ الدرهم درهمين .

ــ أعطيت زيادة على هذا .

ــ أربعة .

ــ أعطيت زيادة على هذا .

ــ خمسة .

ــ أعطيت أكثر من هذا .

ــ يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟

ــ إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟

ــ لا .

ــ فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين .

وقال له رسول الله ــ ﷺ :

ـــ يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى يوم القيامة .

* * *

وسار على بن أبى طالب ناحية المحراب . إنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما . أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ذو بطن ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع أبيض الرأس ، عريض ما بين المنكبين ، لا تبين عضده من ساعده .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا على ، فقد كان يحبه ويقول :

ـــ من آذى عليا فقد آذانى .

ويقول :

ـــ على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض .

وكان على لا يترك فرصة يتعلم فيها من رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فهو يبجل العلم ويقول :

ـــ العلم يرفع الوضيع ، والجهل يضع الرفيع ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه .

ومن حكمه :

ـــ لا تكون غنيا حتى تكون عفيفا ، ولا تكون زاهدا حتى تكون متواضعا ، ولا تكون متواضعا حتى تكون حليما ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلا أن يرتكب ما عنه نهى ، وكفى به عقلا أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله .

كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل

ووحشته ، إنه غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما خشن يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

* * *

وصلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالناس المغرب والعشاء ثم دخل يدور على نسائه ، فدخل على سودة بنت زمعة ولم يكن بها يوم تزوجها بعد موت خديجة أم المؤمنين على الأزواج من حرص ، ولكنها أحبت أن يبعثها الله يوم القيامة زوجا للرسول .

إنه — صلوات الله وسلامه عليه — تزوجها عزاء لها بعد أن مات زوجها وابن عمها السكران بن عمرو هناك فى الحبشة ، ولم تكن جميلة ولم تكن شابة ولكنها كانت وحيدة ، وما كان المسلمون يدعون مسلمة مؤمنة بلا زوج بل لا بد أن تكون فى كنف رجل ، وما أكثر الزيجات التى تمت بين الأرامل وكبار الصحابة صيانة للنساء .

وكانت سودة تحاول جاهدة أن تسعد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فكانت تنشرح إذا ما رأته يبتسم ، وكانت تسارع بفعل كل ما تظن أن رضاه فيه ، فلما فطنت إلى أن عائشة بنت أبى بكر أحب نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى قلبه ، ووجدت أن الشيخوخة قد دبت فيها قالت لزوجها العظيم :

— إنى أهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء .

* * *

وذهب إلى غرفة عائشة فإذا بالزوجة الحبيبة ترحب به فى ود صادق وحب عميق ، إنه ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، إنها لو كانت قد تزوجت من جبير بن المطعم بن عدى لما ارتفع شأنها عن أى زوجة من زوجات المؤمنين ، ولكنها

بزواجها من رسول رب العالمين أصبحت أم المؤمنين وحب نبي الإسلام ، عليه السلام ، الكبير .

إنها لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذى ماتت فيه أمها أم رومان ، فقد واساها عليه السلام أجمل مواساة وغمر بعطفه أباها الصديق ، ولم يكتف بذلك بل نزل قبر أمها واستغفر لها وقال :

— اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك .

إنها لا تفتأ تذكر يوم عرسها كلما خلت بنفسها ، فقد جاء رسول الله بيتهم فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتها أمها وهى فى أرجوحة بين عذقين فأنزلتها ثم سوت شعرها ومسحت وجهها بشيء من ماء ثم أقبلت تقودها حتى إذا كانت عند الباب وقفت بها حتى ذهب بعض نفسها ، ثم أدخلتها ورسول الله جالس على سرير فى بيتها فأجلستها فى حجره وقالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

ومنذ ذلك اليوم ورسول الله يصنعها على عينه ليأخذ عنها المسلمون نصف دينهم ، وقد علم المسلمون حب الرسول لبنت أبى بكر فكانوا يبعثون إليه الهدايا وهو فى بيتها ، فدفعت الغيرة زوجاته إلى أن يلتمسن من الزهراء أن تخاطب أباها فى الأمر فذهبت إليه وقالت :

— يا أبى إن نساءك أرسلننى إليك وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

— أى بنية أتحبيننى ؟

— نعم يا أبى .

— فأحبيها .

ولم تحاول فاطمة أن تؤذى أباها بعد ذلك فى عائشة .

وظل الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، فاجتمع نساء النبى إلى أم سلمة

فقلن :

ــ يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة ، فمرى رسول الله ــ ﷺ ــ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان وحيث ما دار .

فذكرت ذلك أم سلمة للنبى ــ ﷺ ــ فأعرض عنها ، فلما عاد إليها ذكرت ذاك فأعرض عنها ، فلما كان فى الثالثة ذكرت له فقال :

ــ يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة ، فإنه ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها .

* * *

ودخل رسول الله ــ ﷺ ــ حجرة حفصة بنت عمر ، إنه تزوجها بعد أن مات زوجها خنيس بن حذافة يوم أحد ليشد الأواصر بينه وبين عمر كما شد الأواصر بينه وبين الصديق من قبل بزواجه من عائشة ، إنه تزوج ابنتى وزيريه .

لم تكن حفصة فى رقة عائشة ولم تكن جميلة وكان فيها حدة ، وكان عمر يحس أن النبى ــ ﷺ ــ يتحملها إكراما له ، ولقد قال لها ذات يوم :

ــ والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاى لطلقك !

* * *

ودلف رسول الله ــ ﷺ ــ إلى أم سلمة بنت زاد الركب ، إنها كانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب ، وأخوه ــ ﷺ ــ من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب .

وكان ممن هاجر إلى الحبشة وهناك أنجبا ابنهما سلمة ، وهاجرا إلى المدينة وفى غزوة أحد جرح أبو سلمة جرحا خطيرا ثم التأم ، فبعثه رسول الله ــ ﷺ ــ لقتال بنى أسد فعاد الجرح فنغر وحمل أبو سلمة إلى المدينة حيث قضى نحبه وترك

أم سلمة أرملة .

ولما مات أبو سلمة قال لها ـــ ﷺ :

ـــ سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا .

ـــ ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟

ولما اعتدت أم سلمة أرسل إليها النبى ـــ ﷺ ـــ يخطبها مع حاطب بن أبى بلتعة ، فلما جاءها حاطب قالت :

ـــ مرحبا برسول الله ـــ ﷺ ـــ تقول له إنى امرأة مسنة ، وأنى أم أيتام ، وأنى شديدة الغيرة .

فبعث إليها رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يقول :

ـــ أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وشبت زينب بنت أم سلمة فى رعاية الرسول ـــ ﷺ ـــ فكانت من أفقه نساء أهل زمانها ، واختار لربيبه سلمة ابنة حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

إن ابن أم سلمة زوَّج أم سلمة رسول الله ـــ ﷺ ـــ على متاع منه رحى وجفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، فتزوجها رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأدخلها بيت زينب أم المساكين بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شىء من شعير وإذا رحى وبرمة وقدر وأدم ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، فكان ذلك طعام رسول الله ـــ ﷺ ـــ وطعام أهله ليلة عرسه .

إن أم سلمة بنت زاد الركب كانت تعيش عيشة مترفة فى بيت أبيها ، فلما اعتنقت الإسلام ضحت بكل راحة فى سبيل راحة ضميرها وإحساسها الصادق بحريتها ، وقد هاجرت إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة وهى راضية كل

الرضا . ثم أصبحت زوجة لرسول الله ـ ﷺ ـ تعيش فى حجرة متواضعة كل ما بها لا يساوى أكثر من عشرة دراهم ، ولكنها كانت تستشعر فى أعماقها سعادة مَن ملك الدنيا بأسرها والآخرة بنعيمها .

* * *

ودخل على زينب بنت جحش فإذا بها غارقة فى الصلاة فهى حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل . كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الأشراف يأنفون أن يزوجوا بناتهم من الموالى . وقد أراد الإسلام أن يقضى على هذه النعرة الجاهلية فكان زواج زيد من زينب سليلة المجد والشرف .

وكان أشراف العرب يتعففون عمن تزوجن من الموالى ، وأراد الإسلام أن يقضى على تلك العادة المتأصلة فيهم وأن يعلن أن الناس سواسية وأنهم من آدم وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فكان زواج محمد ـ ﷺ ـ من ابنة عمته زينب بنت جحش بعد أن قضى زيد منها وطرا .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد أرسل زيد بن حارثة يخطبها له ـ ﷺ ـ فذهب زيد إليها فجعل ظهره إلى الباب فقال :

ـ يا زينب بعث رسول الله ـ ﷺ ـ يذكرك .

ـ ما كنت لأحدث شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل .

فأنزل الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها »[1] . فكانت تفتخر على نسائه ـ ﷺ ـ وتقول :

ـ إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سماوات .

ونزلت فى ذلك اليوم الذى لا تنساه زينب آية الحجاب فإنه ـ ﷺ ـ دعا

---

(١) الأحزاب ٣٧

القوم وطعموا وتهيأ — صلى الله عليه وسلم — للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى — صلى الله عليه وسلم — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما . لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا »[١] .

وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد ، فتكلم فى ذلك المنافقون وقالوا :

— محمد حرم نساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما »[٢] . وأنزل سبحانه وتعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما »[٣] .

---

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥ (٢) الأحزاب ٤٠ .

(٣) الأحزاب ٥

وكان رسول الله — ﷺ — يقول عنها :

— إنها لأواهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأواه ؟

— الخاشع المتضرع .

وكانت عائشة تقول فى حقها :

— هى التى كانت تساوينى فى المنزلة عند رسول الله — ﷺ — وما رأيت قط خيرا فى الدين وأتقى لله وأصدق فى الحديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة من زينب .

* * *

وذهب إلى دار جويرية بنت الحارث وكانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة لا يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه ، كانت من سبايا بنى المصطلق وقد وقعت فى السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسها ورأت أن تستعين برسول الله صلوات الله وسلامه عليه فجاءت إليه وهو فى حجرة عائشة وقالت :

— يا رسول الله أنا بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على أمرى .

— فهل لك فى خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس فأطلقوا ما كان بأيديهم من الأسرى وقالوا :

ـــ أصهار رسول الله .

ودخلت بيت النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق بزواجها من الرسول أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق .

* * *

وطاف بريحانة بنت يزيد من بنى النضير وكانت قبل رسول الله ـــ ﷺ ـــ عند رجل من بنى قريظة يقال له الحكم ، وكانت جميلة وسيمة وقعت فى سبى بنى قريظة فكانت صفى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا .

ودخل بها عليه السلام فى بيت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية ، وغارت عليه ـــ ﷺ ـــ غيرة شديدة فطلقها فأكثرت البكاء فراجعها عليه السلام .

* * *

ودخل على أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وهى بنت عمة عثمان بن عفان هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة ربيبة رسول الله وهى فى حجره عليه السلام .

وتنصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هى على الإسلام ، وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فزوجه إياها ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أربعمائة دينار وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة .

وكانت أم حبيبة راضية النفس مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تشكر الله على أن هدى أبا سفيان وأهل بيته إلى الإسلام ، فقد كانت قبل فتح مكة ترتجف فرقا أن يموت

شيخ بني أمية على الكفر كما مات شيوخ بنى مخزوم وبنى وائل وبنى عبد شمس .

* * *

وزار صفية فى حجرتها ؛ إنها بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير قتل مع قريظة ، وكانت عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر ، فلما جمع سبى خيبر جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دحية الكلبى فقال :

— يا رسول الله أعطنى جارية من السبى .

— اذهب وخذ جارية .

فأخذ صفية فقيل :

— يا رسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— خذ جارية من السبى غيرها .

فحجبها وجهزتها له أم سليم وأهدتها له من الليل ، فأولم — صلى الله عليه وسلم — عليها بتمر وسويق .

ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أثرا فى وجهها فسألها عن ذلك فقالت :

— رأيت كأن القمر وقع فى حجرى فذكرت ذلك لزوجى كنانة ، فضرب وجهى ضربة أثرت فىّ هذا الأثر وقال : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب .

وكانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها — صلى الله عليه وسلم — يوما وهى تبكى فقال لها فى ذلك فقالت :

— بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

— قولى لهن : كيف تكن خيرا مني وأبي هارون وعمي موسى عليهما الصلاة والسلام وزوجي محمد ؟

* * *

وطاف — ﷺ — بميمونة بنت الحارث وكان اسمها برة فسماها — ﷺ — ميمونة ، وهي خالة عبد الله بن العباس وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين ، وخالة خالد بن الوليد ، وكانت فى الجاهلية عند مسعود بن عمر ففارقها فخلف عليها أبو رهم فتوفى عنها ، وقد وهبت نفسها للنبى — ﷺ — عندما كان فى مكة يؤدى العمرة بعد صلح الحديبية وبنى بها بسرف ، وقد ظلت سرف أحب أرض الله إلى قلبها حتى إنها أوصت أن تدفن بسرف .

* * *

وترك — ﷺ — دور نسائه وانطلق إلى مشربة أم إبراهيم . كانت مارية المصرية تنتظره وكان معجبا بها لأنها كانت بيضاء جميلة ، وكانت تذكره بأبيه إبراهيم وهاجر المصرية وإسماعيل الذى كان جسرا بين مصر والعرب .

وكان إبراهيم الحبيب هناك ؛ إن قلبه الشريف يهفو إليه ويخفق بحبه ، وذهنه يسترجع صور الماضى التى تشرق فى وجدانه فتبدد أحزانه . إنه يرى أبا رافع مولاه وقد جاء إلى المسجد بإبراهيم فيهرع إليه أسامة بن زيد والحسن والحسين وحبيبة وأميمة ابنة زينب يحاول كل منهم أن يختطفه لنفسه . هذا يداعبه وذاك يقبله والجميع يناجونه فى حب صادق لا تشوبه غيرة . إنها صور إنسانية تمس وترا حساسا فى قلبه الكبير وتفجر ينابيع الحنان من كنز فؤاده بأنبل المشاعر وأرق الإحساسات .

ورأى فى ظلام الليل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وكبار الصحابة وقد فتحوا

قلوبهم لإبراهيم وغمروه بحبهم فاستشعر سعادة عارمة ، ولم يكدر صفوه أنه تذكر فى تلك اللحظة ما كان من عائشة بنت أبى بكر ؛ إنه جاء به إلى عائشة ذات يوم وقال لها :

ــ انظرى إلى شبهه .

ــ ما أرى شيئا .

ــ ألا ترين إلى بياضه ولحمه ؟

أنكرت عائشة كل شبه بينه وبين إبراهيم بوحى من غيرتها ، وإنه ليغفر لبنت الصديق غيرتها . إنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ دفعه لأم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس لترضعه وأعطاها قطعة نخل ، فكانت ترضعه فى بنى مازن وترجع به المدينة ، وكان ــ ﷺ ــ ينطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ثم يرجع .

إن مارية تعلم مقدار حب رسول الله ــ ﷺ ــ لابنه إبراهيم فكانت تحرص على أن يكون عندها كلما جاء ــ ﷺ ــ لزيارتها فهو قرة عينه ومصدر سعادته ، وإنه لمما يبهجها أن ترى رسول الله ــ ﷺ ــ سعيدا .

ولم تعد مارية جارية فقد حررها ولدها ، فالإسلام دين الحرية يلتمس أى سبب لتحرير الرقاب ، فما أن تضع الجارية ما فى بطنها حتى تصبح حرة لها حقوق كل الأحرار ، وقد أمسى لمارية ليلة يخصها بها رسول الله ــ ﷺ ــ أسوة بأمهات المؤمنين .

ودخل رسول الله ــ ﷺ ــ على المصرية بنت الصعيد فألفى إبراهيم فى حجرها فامتد إليه فؤاده قبل أن تمتد إليه يداه ، ثم رفعه وراح يقبله فى حب وهو يفكر فى إسماعيل الجديد الذى سيكون جسر الحب بين مصر والعرب .

٤

كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل فيمن شهد العقبة الأخيرة ، وقد بايعاه ـ ﷺ ـ مع من بايعوه من الأنصار على حرب الأحمر والأسود .
وكان عمرو بن الجموح من بني حرام بن كعب بن غانم بن كعب بن سلمة ، وكان معاذ بن جبل من بني جشم وقد ادعته بنو سلمة لأنه كان أخا سهل السلمي لأمه ، وقد توطدت الصداقة بين معاذ بن عمرو بن الجموح وبين معاذ بن جبل الذي كان في بني سلمة .

فلما قدم الذين بايعوا رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجموح بن سلمة ـ وكان ابنه معاذ بن عمرو قد أسلم ـ وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة ، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، فلما أسلم فتيان بني سلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح في فتيان منهم ، كانوا يُدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال :

ـ ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال :

ـ أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه .

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل

ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال :

— إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فشرح الله صدره للإسلام ، فأسلم ليسير فى موكب النور .

وآخى رسول الله — ﷺ — بين جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل ، فكان معاذ فى شوق إلى أن يلقى أخاه الذى كان هناك فى الحبشة ، وكان يتتبع أخباره فى شغف ويرقب ذلك اليوم الذى يهاجر فيه إلى المدينة فى لهفة ، فلطالما سمع أن جعفر كان أقرب بنى هاشم شبها برسول الله — ﷺ .

وكان معاذ بن جبل يحسب أن اليهود سيسارعون بالتصديق برسول الله عليه السلام ، فقد كانوا إذا ما نشب قتال بينهم وبين الأوس والخزرج يستفتحون عليهم برسول الله — ﷺ — قبل مبعثه ، فلما رأى معاذ بن جبل أنهم قد جحدوا ما كانوا يقولون فيه ، سار إليهم هو وبشر بن البراء بن معرور وقالا لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير :

— ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكره لكم .

فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾(١)

وعاد معاذ بن جبل إلى نفر من أحبار يهود يسألهم عن بعض ما فى التوراة فكتموه إياه وأبوا أن يخبروه عنه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولـٰئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾(٢) .

ودعا رسول الله — ﷺ — يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم الله وعقوبته فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب :

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته .

فقال يهود :

— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾(٣) .

وكانت غزوة بدر فشهدها معاذ بن جبل ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ ، ولم يكتف أن يكون رجل سيف بل أراد أن يكون رجل علم ، فكان

---

(١) البقرة ٨٩ (٢) البقرة ١٥٩

(٢) المائدة ١٩

يلزم مسجد الرسول يتلقى منه الحكمة ويقرأ عليه القرآن العظيم ويتفقه فى الدين . فلما عاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى مكة بعد حرب الطائف استخلف عتاب بن أسيد على مكة وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة ، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس .

وقدم على رسول الله فى عام الوفود رسول ملوك خيبر ، فكتب — صلى الله عليه وسلم — إليهم كتابا جاء فيه : « ... أما بعد فإن رسول الله محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إلـه إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وإنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل .

وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيرا ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم وآمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وراح — صلوات الله وسلامه عليه — يوصى معاذا ويعهد إليه ثم قال له :

— يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، وأنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل : شهادة أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له .

فخرج معاذ حتى إذا قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان حُنافر بن التوأم الحميرى كاهنا وكان قد أوتى بسطة فى الجسم وسعة المال وكان

عاتيا ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى — ﷺ — وظهر الإسلام أغار على إبل حراء فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشّحر ونزل بواد من أودية الشحر مخصبا كثير الشجر من الأيك والعرين ، وكان يحاول أن يصم أذنيه عن القرآن الذى فتح أفئدة اليمنيين ، ولكن القرآن كان على كل لسان فألقى إليه السمع فإذا به ليس بالشعر ولا بالسجع المتكلف ، وإذا به فرقان بين الكفر والإيمان ، فلما برق له النور امتطى راحلته وأعلم أعبده واحتمل أهله حتى ورد الجدف فرد الإبل على أربابها وأقبل يريد صنعاء ، فأصاب بها معاذ بن جبل أمير الرسول — ﷺ — فألقى إليه سمعه فإذا بقلبه يتحرك ، وإذا بالدمع يفيض ، وإذا به يتعرض لنفحات ربه فتشرق أنوار المعارف فى عين ذاته ، وإذا به يستشعر أن عالمه أوسع من العالم الأرضى ، وأن ملكه أعظم من أعظم ملك بعد أن سلم قلبه من غير الله ، فأقبل على معاذ بن جبل يبايعه على الإسلام بعد أن ارتفعت الحجب بين فؤاده والملكوت .

٥

كانت وفود اليمن ترد إلى المدينة وتلقى رسول الله ــ ﷺ ــ يحملون إسلامهم وإسلام من وراءهم ، وكان رسول الله يبعث إليهم من يفقههم فى الدين ، فقد أرسل إلى الكورة العليا من جهة عدن معاذ بن جبل ، وبعث أبو موسى الأشعرى إلى الكورة السفلى وقال له يوصيه :

ــ يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، إنك ستأتى قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب .

وانطلق أبو موسى الأشعرى إلى اليمن فراح يذكر تلك الأيام التى سبقت هجرته إلى المدينة ، فقد بلغه وهو فى اليمن مخرج النبى ــ ﷺ ــ إلى يثرب ، فخرجوا مهاجرين إليه هو وأخوان له هو أصغرهم ، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم فى ثلاثة وخمسين رجلا من قومه ، فركبوا سفينة فألقتهم سفينتهم إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبى طالب فأقاموا معه حتى قدموا جميعا فوافقوا النبى ــ ﷺ ــ حين افتتح خيبر .

وكان أناس من الناس يقولون لهم :

ــ سبقناكم إلى الهجرة .

ودخلت أسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبى طالب وهى ممن قدم

معهم على حفصة زوج النبى — ﷺ — زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى الحبشة فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء :

— من هذه ؟

— أسماء بنت عميس .

— الحبشية ؟ هذه البحرية هذه ؟

قالت أسماء :

— نعم .

— سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله — ﷺ — منكم .

فغضبت وقالت :

— كلا والله ، كنتم مع رسول الله — ﷺ — يُطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار البُعداء البُغضاء فى الحبشة وذلك فى الله وفى رسول الله — ﷺ — وايم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله — ﷺ — ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك للنبى وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

وانصرف عمر وبقيت أسماء بنت عميس تنتظر رسول الله — ﷺ — فلما جاء قالت :

— يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا .

— فما قلت له ؟

— قلت له كذا وكذا .

— ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وذاع خبر ذلك الحديث فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء بنت

عميس أرسالا يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي — ﷺ .

وتوجت شفتي أبي موسى بسمة رقيقة وراح يجري وراء أفكاره ، إنه يذكر ما قاله رسول الله — ﷺ — ليلة أن نزلوا المدينة ، قال صلوات الله وسلامه عليه :

— إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار .

وبعث — ﷺ — جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذي الخلصة ، إنه قدم على رسول الله — ﷺ — سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان فبايعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا وقد قال — ﷺ — لما رآه :

— كأن على وجهه مسحة ملك .

وكان عمر بن الخطاب يقول :

— جرير يوسف هذه الأمة .

وكان طوالا وقد بعثه — ﷺ — ليهدم صنم قومه ، فانطلق جرير والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى ما كان منه في الجاهلية يوم نافر خالد بن أرطأة الكلبي ، إن كلبا أصابت رجلا من بجيلة يقال له ملك بن عتبة من بني عادية فوافوا به عكاظ ، فمر العادي بابن عم له يقال له القاسم يأكل تمرا ، فتناول من ذلك التمر ليتحرم به فجذبه الكلبي فقال له القاسم :

— إنه رجل من عشيرتي .

— لو كانت له عشيرة منعته .

فانطلق القاسم إلى بني عمه بني زيد بن الغوث ليستعين بهم على بني كلب فقالوا :

— نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخر يستعين بهم فقالوا :

— كلما طارت ورقة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها ؟!

فانطلق عند ذلك إلى جرير فكلمه والدهش فى عينيه ، فذاك كان أول يوم يرى فيه القاسم الثياب المصبغة والقباب الحمر . كان جرير سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه ، فدعاهم فى انتزاع العادى من كلب فتبعوه فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه ، فقال جرير :

— زعمتم أن قومه يمنعونه .

— إن رجالنا خلوف .

— لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

— كأنك تستطيل على قضاعة ، إن شئت قايسناكم المجد .

ثم قال زعيم قضاعة خالد بن أرطأة بن خشين بن شبث :

— ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظا من قابل وصاحب أمر كلب خالد بن أرطأة ، فحكموا الأقرع بن حابس وكان عالم العرب فى زمانه ووضعوا الرهون على يد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش ، وكان فى الرهن من قشر الأصرم بن عوف ، ومن بنى زيد الغوث بن أنمار ، ثم قام خالد بن أرطأة فقال لجرير :

— ما تجعل ؟

— الخطر (الرهان) فى يدك .

— ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

فقال جرير :

ـــ ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء ، وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

ـــ من لى بالوفاء ؟

ـــ كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر . فمن عليك بالوفاء ؟

ـــ ود ومناة وفلس ورضا .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدى عتبة بن ربيعة ، فقال الأقرع :

ـــ ما عندك يا خالد ؟

فقال خالد فى فخر :

ـــ ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

فقال الأقرع :

ـــ ما عندك يا جرير ؟

ـــ نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ، ونحن الملوك لقسر .

أيام مضت بجهالتها . إن عتبة بن ربيعة قتل يوم بدر وبات بالقليب وقد ذهب عنه كل مجد ، والأقرع بن حابس عالم العرب فى زمانه قد شرح الله صدره للإسلام لا فضل له على أحد إلا بالتقوى ، واللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق ونسر وود ومناة وفلس ورضا قد تحطمت ، وإنه لذاهب لتحطيم ذى الخلصة فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وانتهى جرير من تقويض ذى الخلصة فبعثه رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى ذى

الكلاع . إنه منشرح الصدر راضي النفس ، في صحبة رسول الله — ﷺ — منذ أسلم ، ولا رآه إلا تبسم ، ولا غرو فرسول الله — ﷺ — يقول :

— ابتسامتك لصاحبك صدقة .

وبعث رسول الله — ﷺ — علي بن أبي طالب إلى اليمن وعقد له لواء وعممه بيده وقال :

— امض لا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك .

وبعث خالد بن الوليد في جند آخر وقال :

— إن التقيتما فالأمير علي بن أبي طالب .

فخرج علي في ثلاثمائة فارس وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد وهي بلاد مذحج ، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء ، وجعل على الغنائم بريدة بن الخصيب الأسلمي فجمع إليه ما أصابوا ، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل ، ثم حمل عليهم علي كرم الله وجهه وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا فتفرقوا وانهزموا ، فكف عن طلبهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا ، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا :

— نحن على من وراءنا من قومنا ، من قومنا ، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله .

وأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، فكتب علي بذلك إلى رسول الله — ﷺ — فلما قرأ كتابه خر ساجدا ثم جلس فقال :

— السلام على همدان . السلام على همدان .

٦

كان الظلام يخيم على المدينة ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ولكن الدور كانت كخلايا النحل الرجال والنساء والولدان يرتلون القرآن فى هجعة الليل وقد أضاءت قلوبهم بأنوار اليقين ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يصلى فى جوف الليل فهو أشد الناس خشية وخوفا من الله ، وصلى ما شاء الله أن يصلى ثم أتى ـ ﷺ ـ عائشة فدخل معها فى لحافها وقلبه مشغول بربه ، فقال لبنت الصديق :

ـ ذرينى أتعبد لربى .

فقام ـ ﷺ ـ فتوضأ ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمعه على صدره ، ثم رجع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة فقالت عائشة :

ـ يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

ـ أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾(١) . أواه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أواه .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعمل عمل البيت وأكثر ما كان يعمل الخياطة ،

---

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

ما يرى فارغا قط فى بيته إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة وإنه لم يذق طعاما منذ يومين ، وكانت عائشة ترثى له من الجوع وتقول :

— نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنع عنك الجوع !

فيقول عليه السلام :

— يا عائشة إن إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرمهم وأجزل ثوابهم ، أخشى إن ترفعت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حقى غدا فى الأخرى ، وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى . يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر وقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . والله لأصبرن جهدى ولا قوة إلا بالله .

ودخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله — ﷺ — عباءة مثنية . فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل — صلوات الله وسلامه عليه — على عائشة فقال :

— ما هذا ؟

— يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت فبعثت هذا .

— رديه .

فلم ترده وأعجبها أن يكون فى بيتها حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال :

— والله يا عائشة لو شئت لأجرى الله على جبال الذهب والفضة .

وخرج — ﷺ — ليصلى بالناس فإذا برجل من العرب يرنو إليه فى حب شديد . إن الرجل زحم رسول الله — ﷺ — يوم حنين وفى رجله نعل كثيفة

فوطئ بها على رجل رسول الله — ﷺ — فبعجه عليه السلام بعجة بسوط فى يده وقال :

— بسم الله أوجعتنى .

فبات الرجل لنفسه لائما يقول أوجعت رسول الله ﷺ ، فلما أصبح إذا رجل يقول أين فلان ؟ فانطلق الرجل وهو متخوف فقال له النبى — ﷺ :

— إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فبعجتك بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها .

كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد فى بيت من بيوت رسول الله — ﷺ — نار لا لخبز ولا لطبيخ . كانوا يعيشون بالأسودين الماء والتمر ، وكان — ﷺ — يعطى ثمانين نعجة لأنه بعج بالسوط رجلا وطئ قدمه . إنه كان يحرم نفسه وأهله لتتأسى به أمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وكان للنبى — ﷺ — مهابة ، فكان يبسط الناس بالدعابة يضحك مما يضحكون . وكان يحب نعيمان وكان رجلا مضحاكا مزاحا ، فقد جاء أعرابى إلى رسول الله — ﷺ — فدخل المسجد فأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان :

— لو نحرتها فأكلناها فإنا قد اشتقنا إلى اللحم ويغرم النبى — ﷺ — حقها .

فنحرها نعيمان . فخرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح :

— واعقراه يا محمد .

فخرج النبى — ﷺ — فقال :

— من فعل هذا ؟

— نعيمان .

فأتبعه النبى — ﷺ — يسأل عنه فوجده فى دار ضباعة بنت الزبير بن

عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ورفع صوته :

ــ ما رأيته يا رسول الله .

وأشار بأصبعه حيث هو فأخرجه رسول الله ــ ﷺ ــ وقد تعفر وجهه بالتراب ، فقال ــ ﷺ ــ :

ــ ما حملك على ما صنعت ؟

ــ الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمرونى .

فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم ــ ﷺ ــ ثمنها .

وكان نعيمان إذا دخل المدينة طرفة اشتراها فى ذمته ثم جاء بها إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويقول :

ــ يا رسول الله هذه هدية .

فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

ــ أعط هذا ثمن ما جئت به إليك .

ــ أولم تهد ذلك لى ؟

ــ يا رسول الله لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن يكون لك .

فيضحك النبى ــ ﷺ ــ ويأمر لصاحبه بثمنه .

وقضيت الصلاة فالتف المسلمون حول النبى ــ ﷺ . كان المسجد جامعتهم وكان ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ معلمهم الأكبر الذى لا ينضب علمه ، ولا جرم فعلمه من لدن العليم الحكيم . فراح عليه السلام يقول :

ــ قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى . يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت

لك ولا أبالى . يا بن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .

وقال عليه السلام :

ــ النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها . والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليها إلى الآخرة واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله .

ثم قرأ رسول الله ــ ﷺ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(١) .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان يصغون إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وكان المسلمون يعرفون مكانتهم فى الإسلام فرسول الله ــ ﷺ ــ قال :

ــ أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ؛ ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر ، أشبه عيسى فى ورعه .

وقام الناس إلى الأسواق لما ارتفعت الشمس ، ودخل رسول الله ــ ﷺ ــ داره ، فجاءت إليه امرأة فقالت :

---

(١) الزلزلة ٧ ، ٨

— يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فما لنا فى ذلك ؟

— أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله .

وخرج رسول الله — ﷺ — يمشى مع أبى ذر الغفارى ، فقال له فيما قال :

— إنكم ستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

٧

جاء البراء بن أنس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضعة إبراهيم إلى مسجد رسول الله باسر الوجه ثقيل الخطو تكاد نفسه أن تذهب شعاعا ، يتلفت دون أن تستقر عيناه على شيء ، يحس كأنما يحمل أثقال الدنيا ، فعلى لسانه يتراقص خبر مفجع أليم ، خبر يود أن لو قدره قد أعفاه من حمله .

ورأى بعينين زائغتين رسول الله — ﷺ — جالسا عند المحراب وعنده عبد الرحمن بن عوف ، فاشتد وجيب قلبه واضطربت أنفاسه وشحب لونه وتقدم يترنح من الألم حتى إذا ما بلغ رسول الله — ﷺ — استمسك حتى لا ينهار ، ثم قال فى صوت تخنقه العبرات :

— يا رسول الله إبراهيم يموت .

وأجهش الرجل بالبكاء ، وأحس رسول الله — ﷺ — أن قلبه يكاد أن يتصدع أسى على ابنه الحبيب ، ونزل بصدره حزن عميق فلم يستطع أن يقوم ، فاعتمد على يد عبد الرحمن بن عوف حتى نهض ، ثم انطلق معتمدا على يد صديقه من شدة ما به من الألم .

وجاء إلى فاطمة الزهراء نبأ احتضار أخيها وأن أباها — ﷺ — قد ذهب إلى بنى مازن فأحست نارا تتلظى فى أحشائها وغصة فى حلقها ، فإبراهيم كان سلوى أبيها وعزاءه عن الأحبة الذين دسهم فى التراب : زينب ورقية وأم كلثوم . إنها فاجعة تنقض الظهر وتمزق نياط القلب وتشعل الوجدان بنيران الأحزان .

وراحت تغدو وتروح فى الدار وهى فريسة الآلام والأفكار ، فعلى بن أبى

طالب هناك فى اليمن وليس معها إلا الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . وهى تريد أن تبعث إلى أبى بكر وعمر وصحابة أبيها ليخففوا عنه لوعة المصاب ، ورأت أنس بن مالك فنادته وأخبرته الخبر والتمست منه أن يبلغ الرجال ، فإذا أسامة بن زيد يعدو إلى مشربة أم إبراهيم ، وإذا بالفضل بن العباس يوسع من خطوه ليلحق بابن عمه ، وإذا بأبى بكر وعمر وكبار الصحابة يشتدون إلى العالية وفى قلوبهم حزن وفى حلوقهم غصة وقد لاذوا بالصمت وكان صمتا أفصح من البيان ، فالأسى الذى ارتسم على الوجوه كان يعكس ما يعتمل فى صدورهم من ألم وما يمور فى نفوسهم من أحزان .

وبلغ سيرين أخت مارية وزوج حسان بن ثابت أن ابن أختها يجود بأنفاسه فلفها خوف واستولى عليها ذهول ، حتى إذا ما استبان لعقلها هول الفاجعة ندت عنها صرخة عبرت عما تكابد من آلام ، ثم راحت تهرول إلى دار أختها وبين ضلوعها نار .

ولحق أنس بن مالك برسول الله ـ ﷺ ـ وعبد الرحمن بن عوف والبراء بن أنس وهم يقتربون من دار البراء ، وكان إلى جوار الدار حداد ينفخ الكور فيملأ المكان بالدخان ، فتقدم أنس وهو يقول : رسول الله .. رسول الله .

ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ على أم بردة فإذا الحجرة قد امتلأت بدخان الحداد ، وإذا بأم بردة قد وضعت إبراهيم فى حجرها . فمال رسول الله ـ ﷺ ـ على فلذة كبده ونظر فى وجهه فألفاه ذابلا ذبول الموت ، فنزل به حزن لو نزل على جبل لتصدع ، ثم قبله قبلة أودعها حبه وذوب نفس والهة حزينة لا تملك إلا الامتثال لأمر الله .

وخرجت أم بردة تحمل إبراهيم وخلفها رسول الله ـ ﷺ ـ فمد إليه عبد الرحمن يده فاعتمد عليها ، وسار الركب الحزين إلى مشربة أم إبراهيم وأنس

والبراء وعبد الرحمن بن عوف يغالبون دموعهم حتى لا يزيدوا أحزان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه .

ودخلت أم بردة على مارية فهرعت إليها ملهوفة وأخذته منها وقلبها يرف كجناح حمامة بين ضلوعها ، ونظرت فى وجهه فإذا بها تنوء بآلامها تكاد أن تموت كمدا ، فابنها بين ذراعيها يموت . وأى ابن ؟ إنه من رسول رب العالمين ، من الطاهر الأمين ، الأمل الحلو المرجو الذى أحال حياتها إلى فردوس طوال السنتين اللتين عاشهما فى دارها .

ووضعته فى حجرها ، وجاءت سيرين تمد إليه عينيها ولكنها لم تقو على أن ترى الزهرة ذابلة فأشاحت بوجهها تسح دموعها ، واستمرت مارية ترنو إلى نور حياتها وهو يخبو فسفحت الدمع السخين . وأحس رسول الله ــ ﷺ ــ ما تعانى مارية من عذاب أليم فما بها بعض ما به ، فأخذه ــ ﷺ ــ ووضعه فى حجره .

وراح إبراهيم يلتقط أنفاسا واهية ثم حشرج حشرجة الموت ، فتأججت النيران فى صدر رسول الله ــ ﷺ ــ وغص حلقه واغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

ــ يا إبراهيم ، إنا لن نغنى عنك من الله شيئا .

وفاضت الروح الطاهرة فذرفت عينا الرسول ، وصاحت مارية وسيرين فنهاهما ــ ﷺ ــ عن الصياح ، ثم التفت إلى إبراهيم المسجى فى حجره وقال :

ــ إنا بك يا إبراهيم لمحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب . ولولا أنه وعد صادق وموعود جامع فإن الآخر منا يتبع الأول ، وجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه .

وخرج ﷺ ــ على أصحابه منكس الرأس يذرف الدمع ، فهرع إليه أبو

بكر وعمر وقالا له :

— أنت أحق من علم لله حقه .

— تدمع العين .

وقال له عبد الرحمن بن عوف :

— أولم تكن نهيت عن البكاء ؟

— لا . ولكن نهيت عن صوتين أحمقين آخرين : صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وصوت عند نغمة لهو ، وهذه رحمة . من لا يرحم لا يُرحم .

وصرخ أسامة بن زيد فنهاه رسول الله — ﷺ — فقال له :

— رأيتك تبكى .

— البكاء من الرحمة ، والصراخ من الشيطان .

إنه — ﷺ — يجد فى كبده جمرة لا يطفئها إلا عبرة ، فسكبها ، ولم يتحرك لسانه بما يسخط الرب . وإن مارية تفيض عيناها من الدمع حزنا على إبراهيم ، وقد استولى عليها جزع فلا جرم فسراج حياتها قد انطفأ ، وحلم يقظتها ومنامها قد أصبح سرابا . كانت ترجو أن يكون إبراهيم للعرب كما كان إسماعيل ، وأن تصبح أما للعرب كما صارت هاجر المصرية أما لهم . ولكن الزكى الطاهر ابن النبى المصطفى قد مات .

مات ! يا لها من كلمة موحشة تجلل بالسواد وجدانها وتقوض كل الأمانى والآمال ، وأجهشت مارية بالبكاء حتى كادت كبدها تنفطر وروحها تفر من ذلك الأتون الذى تلظى بين الضلوع . وانكفأت سيرين على أختها تضمها إليها لتخفف عنها وقع المصاب والدمع مسفوح والقلب مجروح ، والصوت قد حبس خشية غضب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

ولم تذهب الدموع بلوعة مارية ، ولم تخفف وطأة الأسى عن رسول الله ــ ﷺ ــ فإن إبراهيم لما مات كان ــ ﷺ ــ مستقبلا للجبل فقال :

ــ يا جبل لو كان بك مثل ما بى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

وراح الفضل بن العباس يغسل إبراهيم وقد ساد الصمت الحزين ، حتى إذا ما خرج الناس به مادت الأرض تحت قدمى مارية فانهارت تبكى وتنتحب . ولولا امتثالها لأوامر رسول الله ــ ﷺ ــ لصرخت وخمشت وجهها وشقت جيبها ؛ فقد خرج بلا عودة من كان وجودها فى وجوده ومكانتها مستمدة من مكانته وعزها من عزه ، ولا غرو فلم يكن ابنها وحسب ولكنه كان ابنها وابن رسول الله الذى بعثه ربه رحمة للعباد .

وسارت الجنازة إلى البقيع ، رسول الله ــ ﷺ ــ بين أبى بكر وعمر ، والناس يذرفون الدمع حزنا على حزن نبى الإسلام عليه السلام ، وما أكثر ما قطع رسول الله عليه السلام ذلك الطريق ، فما من جنازة خرجت من المدينة إلا خرج فيها عليه الصلاة والسلام ، وإن جنازات بناته رقية وزينب وأم كلثوم لتعود إلى ذاكرته لتزيد فى آلام حليف الأحزان . وطافت بذهنه جنازة خديجة أم المؤمنين وحاضنة الإسلام ؛ إنه ليذكر ذلك اليوم الذى قبرها هناك فى مكة إلى جوار ولديه القاسم وعبد الله . كان يوما فاجعا مثل ذلك اليوم الذى يقبر فيه آخر أولاده الذكور الذى اكتحلت به زمنا يسيرا عيناه .

وبلغ الجثمان الطاهر البقيع فصلى رسول الله ــ ﷺ ــ على فلذة الفؤاد وكبر أربعا ، ثم نزل فى قبره هو وأسامة بن زيد . وجلس رسول الله على شفير القبر ثم قال :

ــ الحق بسلفنا الصالح وعثمان بن مظعون .

وكسفت الشمس فقال قائل :

— كسفت لموت إبراهيم .

كان رسول الله — ﷺ — صادقا مع ربه صادقا مع نفسه ومع المؤمنين ، فلم يمنعه حزنه من أن يحتج على ذلك القول الذى يجافى الحقيقة . فقال — ﷺ — :

— إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا ينكسفان لموت أحد .

وسوى التراب فرش عليه السلام على القبر ماء وعلم عليه بعلامة ، ووقف يلقن ولده الحبيب فى صوت حزين قال :

— يا بنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب . إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بنى قل الله ربى ، والإسلام دينى ، ورسول الله أبى .

فبكت الصحابة ومنهم عمر بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه النبى — ﷺ — فقال :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ، ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقنه التوحيد فى مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك .

فبكى النبى — ﷺ — وبكت الصحابة معه ، ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[1] . فتلا النبى — ﷺ — الآية فطابت الأنفس وسكنت القلوب وشكروا الله .

---

(١) إبراهيم ٢٧ .

وقفل الناس راجعين بعد أن قبروا إبراهيم ، وقال — ﷺ :

— لو عاش ما رق له خال .

لوضعت الجزية عن كل قبطى ، وإن الحسن بن على كلم معاوية فى أيام خلافته فى أن يضع الخراج عن أهل بلدة مارية ، وهى حفنة من أنصنا فى صعيد مصر ، ففعل معاوية ذلك رعاية لحرمتهم . ولو عاش إبراهيم لكان فتنة . فسلام على إبراهيم وسلام على أبى إبراهيم — صلوات الله وسلامه عليه .

٨

كانت قوافل التجارة تخرج من مكة والطائف والمدينة ، وكان بعض الذين يحبون أن يكون لهم نصيب فى التجارة ولا مال عندهم يقترضون من الموسرين ، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء مكة فكان يقرض الناس على أن يأخذ ربا يقدره على القرض كل شهر ، فإذا كان القرض لعام فعلى المدين أن يسدد القرض كله كاملا فى نهاية العام دون أن يقتطع منه ما كان العباس يتقاضاه كل شهر . فإذا كان المدين معسرا وطلب تجديد عقد القرض سنة أخرى فعلى المدين أن يدفع فى نهاية السنة التالية ضعف القرض وأن يستمر فى دفع الفوائد الشهرية المتفق عليها ، فإذا لم يتمكن المدين من سداد الدين الجديد فى نهاية السنة الثالثة فعليه أن يدفع ضعف المبلغ الذى بلغه القرض فى نهاية السنة الثانية إذا أراد أن يؤجل الدين سنة أخرى .

وما كان العباس وحده الذى يقرض الناس بالربا . فخالد بن الوليد وأثرياء بنى مخزوم وسادات الطائف وسادات يثرب الأغنياء كانوا يعيشون على الربا ، بل إن بعض متوسطى الحال كانوا إذا أقرضوا مقترضا ناقة عمرها عامان ، فإذا طلب مهلة ثانية فعليه أن يعيد ناقة تجاوزت عامها الثالث ولكنها لم تبلغ الرابع بعد .

وكانت القاعدة ذاتها تطبق على الذهب والفضة ، فإذا اقترض المدين مائة دينار فعليه أن يدفع فى العام الثانى إذا طلب مد الأجل مائتى دينار ، وإذا عجز عن الوفاء وطلب مهلة سنة أخرى فعليه أن يدفع فى نهاية السنة الثالثة أربعمائة دينار ، وهكذا إلى أن يسدد المدين دينه كاملا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا

تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾(١) .

وهاجر خالد بن الوليد إلى المدينة وكان له أموال عظيمة فى الربا ، فلما نزلت آية تحريم التعامل بالفوائد المركبة راح هو والمسلمون يقرضون الناس بفوائد بسيطة ، فكان العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان يقرضون الناس وكانا قد أسلفا فى التمر ، فلما حضر الحصاد قال لهما صاحب التمر :

— لا يبقى لى ما يكفى عيالى إذا أنتما أخذتما حظكما كله ، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما ؟

ففعلا .

إن ابتزاز الأغنياء أموال الفقراء لا يتفق مع المجتمع الجديد الذى يكونه الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ونجدة الملهوف ، وإن السماح بوجود طبقة غنية لا عمل لها إلا إقراض الناس مال الله الذى آتاهم سيكوّن طبقة من العاطلين لا عمل لهم ، مع أن الإسلام يقدس العمل حتى جعله عبادة ، وإنه يبارك الكسب الحلال دون عبادة المال أو تأليه المادة .

إن الربا من الخبائث فهو يقتلع جذور الروح الإنسانية ويحرك فى النفوس الطمع ؛ وما جاء الإسلام إلا للقضاء على الجشع واستئناس الوحش الرابض فى صدر الإنسان ، وتقوية الروابط بين الطبقات الاجتماعية وعدم إثارة أسباب الصراع بينها ، فإن سمح الإسلام بالربا فلكأنما قد ضم الحيات التى ستقضى عليه إلى صدره ، ولكن الإسلام ما دام يقصد الانسجام التام بين طمع الفرد وسلامة الجماعة فما كان أمامه إلا أن يحرم الربا الذى يقوض الروابط الاجتماعية الإنسانية من أساسها .

---

(١) آل عمران ١٢٠

إن السماح بالربا ليس له من هدف سوى تكوين رأسمالية مستغلة بغيضة تشيع الفوضى الاجتماعية لتحقيق مآربها من استيلاء على السلطة وتسلط على المجتمع لتحقيق مطامعها . فالإسلام بتحريمه الربا إنما يحكم فى أنانية الموسرين التى لا ترحم ، وفى جوعهم الدائم للذهب الذى يفسد القلوب ويدنس طهارتها ويهدر الكرامة الإنسانية .

كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . فكيف يسمح لشخص أن يبتز شخصا آخر لمجرد أن عنده مالا يفيض عن حاجته ؟ وأين التكافل فى مجتمع تستغل فيه فئة قليلة بيدها مال الله فئة كثيرة فى حاجة إلى ذلك المال ؟ إن هدف الإسلام بناء جماعة متوازنة متحابة قد برئت من أمراض القلوب والأنانية ، جماعة نبيلة تحيا حياة مادية روحية ، تعبد الله وتسعى فى مناكب الأرض ، تغذى الروح بغذاء الروح وتغذى الجسد بالطيبات الحلال ، تحب للأغيار ما تحب لنفسها ، وتبارك مكارم الأخلاق وتنطلق فى طريق الخير شاكرة لأنعم الله ، سعيدة بما تقدم للآخرين من خير . « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، فما دام هذا بعض أهداف الإسلام ، فلا مكان للربا والاستغلال ولا للبغض والحقد والصراع بين الطبقات .

وحرم الإسلام الربا وارتسمت على بعض الوجوه دهشة ، وقال أناس :

ــ إنما البيع مثل الربا .

وفتح الله على رسوله ــ ﷺ ــ مكة فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف

وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾(١) .

وحاصر — صلى الله عليه وسلم — الطائف ولم يفتحها ، ثم رفع الحصار عنها وعاد إلى مكة واستعمل عليها عتاب بن أسيد بن أبي العيص ورزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال :

— أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — درهما كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد .

ووفد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في رمضان وفد ثقيف فأعلنوا إسلامهم ، ثم أسلمت ثقيف كلها وكان سادات ثقيف مسعود بن عبد ياليل وحبيب وعمرو ابن عمر الثقفي ، وكانوا يقرضون بني المغيرة أموالا بربا الجاهلية ، فلما أسلموا شدوا الرحال إلى مكة وطالبوا بني المغيرة بأصل الدين والربا ، فرفض بنو المغيرة السداد لأن الإسلام حرم الربا .

ونشب خلاف بين بني ثقيف وبين بني المغيرة فاختصموا إلى عتاب بن أسيد ، وأبرز بنو ثقيف ما كان في حوزتهم من عقود فكتب عتاب بن أسيد بالنزاع إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتدبر الأمر ، وفيما هو في تفكيره إذ أوحى إليه : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »(٢) .

وبلغ بني ثقيف ما أنزل الله في الربا فقالوا لبني المغيرة :

— هاتوا رءوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم .

---

(١) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٢) البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

— نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن ندرك الثمرة .

ورفع الأمر مرة أخرى إلى رسول الله — ﷺ — لو كان ذلك فى الجاهلية لكان على بنى المغيرة أن يدفعوا ضعف الدين إذا أمهلوا سنة ، ولكن ذلك كان فى الإسلام فى دين الإنسانية دين الرحمة ، فأوحى الله إلى رسوله — ﷺ — : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون »[١] .

---

(١) البقرة ٢٨٠ .

٩

كان أهل الجاهلية يؤخرون الحج فى كل عام أحد عشر يوما ، فكان لا يعود إلى وقته إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة ، وجاءت سنة عشر من الهجرة وكان الزمان قد استدار فعاد الحج إلى وقته الصحيح ، فلما دخل على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذو القعدة ، تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له .

إنه ـــ ﷺ ـــ كان يحج أيام أن كان فى مكة ، وكان قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة مخالفا لقريش توفيقا له من الله ، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم فإنهم قالوا غرورا :

ـــ نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وعاكفو مكة ، فليس لأحد من العرب منزلتنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم ، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الحمس .

وطاف ـــ ﷺ ـــ ليلة خروجه للحج على نسائه ، ثم اغتسل ثم صلى الصبح والظهر ، ثم طيبته عائشة بطيب فيه مسك ، ثم اغتسل لإحرامه وصلى ركعتين ، ثم أحرم فى رداء وإزار ، واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى ، ووضعت أمهات المؤمنين فى هوادجهن وركب ـــ ﷺ ـــ ناقته القصواء ، وكان على راحلته رحل رث يساوى أربعة دراهم .

وأهل ـــ ﷺ ـــ بالحج وسار وسار معه تسعون ألفا من المسلمين لا يذكُر ولا يذكَّر الناس إلا الحج ، حتى إذا كان بالعقيق وقد ساق رسول الله ـــ ﷺ ـــ

الهدى أتاه آت من ربه فقال له :

ــ صل بهذا الوادى المبارك وقل لبيك بحجة وعمرة معا .

فصار قارنا بعد أن كان منفردا ، وراح يقول :

ــ لبيك عمرة وحجا .

وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق ولدها محمد بن أبي بكر فى ذى الحليفة ، وأرسلت إليه ــ ﷺ ــ فأمرها أن تغتسل وأن تستثفر بخرقة عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن وتربط طرفى تلك الخرقة فى شىء تشده فى وسطها لتمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض ، وتحرم .

ودخل رسول الله ــ ﷺ ــ على عائشة وهى تبكى ، فقال :

ــ ما يبكيك يا عائشة ؟ لعلك نُفست .

ــ نعم والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا .

ــ لا تقولن ، فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين البيت .

وكان جمل أم المؤمنين عائشة سريع المشى مع خفة حمل عائشة ، وكان جمل أم المؤمنين صفية بطىء المشى مع ثقل حملها فصار يتأخر الركب بسبب ذلك . فأمر ــ ﷺ ــ أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة وأن يجعل حمل عائشة على جمل صفية ، فجاء ــ ﷺ ــ لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرها فقال لها :

ــ يا أم عبد الله حملك خفيف وجملك سريع المشى ، وحمل صفية ثقيل وجملها بطىء فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على جملها وحملها على جملك ليسير الركب .

فقالت عائشة فى غيرة :

ــ إنك تزعم أنك رسول الله .

ــ أفى شك أنى رسول الله أنت يا أم عبد الله ؟!

ـــ فما بالك لا تعدل .

فكان أبو بكر فيه حدة فلطمها على وجهها . فلامه رسول الله ــ ﷺ ــ فقال أبو بكر :

ـــ أما سمعت ما قالت ؟

ـــ دعها فإن المرأة الغيراء لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

ونزلوا بمحل يقال له العرج ، فقد البعير الذى عليه زاملته (زاده) ــ ﷺ ــ وزاملة أبى بكر ، وكان ذلك البعير مع غلام لابى بكر فقال أبو بكر للغلام :

ـــ أين بعيرك ؟

ـــ ضللته البارحة .

فقال أبو بكر وقد اعترته حدة :

ـــ بعير واحد تضله !

وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله ــ ﷺ ــ يقول :

ـــ انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع .

ويبتسم ولا يزيد على ذلك ، فكف أبو بكر عن ضرب الغلام والغيظ يعتمل فى صدره .

وبلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله ــ ﷺ ــ ضلت ، فجاء بحيس ووضعه بين يديه ، فقال ــ ﷺ ــ لأبى بكر وهو يغتاظ على الغلام :

ـــ هون عليك يا أبا بكر فإن الأمر ليس لك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصا على ألا يضل بعيره وهذا غذاء طيب قد جاء الله به .

فأكل ــ ﷺ ــ وأبو بكر وأمهات المؤمنين وأهل الصفة ومن كان يأكل مع النبى ــ ﷺ ــ وأبى بكر حتى شبعوا . فأقبل صفوان بن المعطل وكان على ساقة القوم والبعير معه وعليه الزاد حتى أناخه على باب منزله ــ ﷺ ــ فقال رسول

الله ـــ ﷺ ـــ لأبى بكر :

ـــ انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟

ـــ ما فقدت شيئا إلا قعبا كنا نشرب فيه .

فقال الغلام :

ـــ هذا القعب معى .

ولما بلغ سعد بن عبادة وابنه قيس أن زاملته ـــ ﷺ ـــ قد ضلت جاءا بزاملة وقالا :

ـــ يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة وهذه زاملة مكانها .

ـــ قد جاء الله بزاملتنا ، فارجعا بزاملتكما بارك الله لكما .

ثم نزل بذى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح وخلفه تسعون ألفا من الأبرار ثم سار ، فلما استقبل القبلة لبى ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك .

والتفت ـــ ﷺ ـــ إلى أصحابه وقال :

ـــ أتانى جبريل عليه السلام فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج .

ورجّع الكون النداء فامتلأت صدور المؤمنين نشوة ورجاء ، وترقرقت الأعين بالدموع وأشرقت فى الأفئدة أنوار ، فإذا بالألسنة تلبى فى حماس خلف رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ لبيك إلـٰه الخلق لبيك . لبيك حقا . تعبدا ورقا .

وسار المسلمون فى ملابس الإحرام لا فرق بين غنى وفقير ولا سيد ومسود ، كلهم فى الإزار مثلما يوم يبعثون . ونزل ـــ ﷺ ـــ بالمسلمين ظاهر مكة ،

ودخل مكة نهارا والوقت ضحى من ثنية كداء وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة حيث ترقد خديجة أم المؤمنين ، الطاهرة سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام . إنه ليذكرها بالخير ، وما من امرأة من نسائه استطاعت أن تنسيه أيام خديجة النابضة بالكفاح والأمل والحب .

ودخل — ﷺ — المسجد الحرام من باب عبد مناف باب السلام ، فلما أبصر البيت قال :

— اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما .

وتقدم — ﷺ — فى خشوع فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا ، فلما فرغ — ﷺ — قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه .

ورأى — ﷺ — عمر بن الخطاب يزاحم لتقبيل الحجر الأسود أسوة برسول الله — ﷺ — فقال له :

— إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر تؤذى الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر .

وراح عمر يفعل ما فعل رسول الله — ﷺ — قال عندما استلم الحجر الأسود :

— بسم الله والله أكبر .

وقال عندما كان بين الركن اليمانى والحجر كما قال — ﷺ — :

— ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، فرسول الله — ﷺ — لم يستلمهما

لأنهما ليسا على قواعد جده إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

وصلى النبي — صلى الله عليه وسلم — بعد الطواف ركعتين عند مقام إبراهيم وجعل المقام بينه وبين الكعبة ، قرأ فيهما مع أم القرآن : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . ودخل — صلى الله عليه وسلم — زمزم فنزع له دلو فشرب منه ، ثم رجع — صلى الله عليه وسلم — إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم انطلق إلى الصفا .

كان الأنصار فى الجاهلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة . وإنهم سألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك حين أسلموا فأنزل الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾(١) .

وارتقى — صلى الله عليه وسلم — الصفا وقرأ :

— إن الصفا والمروة من شعائر الله . ابدءوا بما بدأ الله به .

فسعى بين الصفا والمروة يمشى فكثر عليه الناس يقولون :

— هذا محمد .. هذا محمد .

حتى خرجت النسوة من البيوت . وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا يُضرب الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب وصار فى السعى يخب ثلاثا ويمشى أربعا ويرقى الصفا ويستقبل الكعبة ويوحد الله ويكبره ويقول :

— لا إلـٰه إلا الله . الله أكبر . لا إلـٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ويرقى المروة ثم يفعل على المروة مثل ما فعل على الصفا ، فلما انتهى من السعى والحلق ، أمر — صلى الله عليه وسلم — من لا هدى معه بالإحلال ؛ ولم يكن ساق الهدى معه من

---

(١) البقرة ١٥٨

أصحابه إلا طلحة بن عبد الله وأبو بكر وعمر والزبير ، وأمر من معه الهدى أن يبقى على إحرامه .

وضاق جمع من الصحابة بهذا الأمر فقد أهلوا بالحج فكيف يجعلونها عمرة ، فدخل — ﷺ — على عائشة وهو غضبان ، فقالت :

— من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار .

— أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون .

كان يريد أن يخفف على أصحابه ، فالإحرام بالحج أشق عليهم لأن المتمتع بالعمرة يحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب ولبس المخيط ، ويبقى كذلك إلى يوم التروية الذى هو اليوم الثامن من ذى الحجة فيحرم بالحج ، وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه بالماء ويحملونه معهم فى ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها .

وخرج — ﷺ — إلى الناس فقام خطيبا فحمد الله تعالى فقال :

— أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لأنا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هديا ولأحللت .

— كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج ؟

— اقبلوا ما أمرتكم به واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به .

وكان رسول الله — ﷺ — بعث عليا إلى نجران ، فلما بلغ عليا أن رسول الله — ﷺ — قد خرج للحج خرج إلى مكة ، فدخل على فاطمة الزهراء فوجدها قد حلت وتهيأت فقال :

— ما لك يا بنت رسول الله ؟

— أمرنا رسول الله — ﷺ — أن نحل بعمرة فحللنا .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فلما فرغ من الخبر عن سفره ، وقال له رسول الله — ﷺ — :

— انطلق فطف بالبيت وحلَّ كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إنى أهللت كما أهللت .

— ارجع فاحلل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد — ﷺ — :

— فهل معك من هدى ؟

— لا .

فأشركه رسول الله — ﷺ — فى هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله — ﷺ — .

وقدم أبو موسى الأشعرى من اليمن ، فقال له — ﷺ — :

— بم أهللت ؟

— لبيت بإهلال كإهلال النبى — ﷺ —

— هل معك من هدى ؟

— لا .

— فطف بالبيت وبالصفا والمروة وأحل .

وجوز لأبى موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم .

ولم يسق أمهات المؤمنين معهن الهدى فأحللن إلا عائشة فإنها لم تحل لأنها أدخلت الحج على العمرة ، وأحلت فاطمة الزهراء وأسماء بنت أبى بكر ، ووجد علىّ أن فاطمة لبست صبيغا واكتحلت فأنكر عليها فقالت :

— أمرني أبي بذلك .

فذهب إلى النبي — ﷺ — محرشا له عليها ، فقال — ﷺ — :

— صدقت صدقت صدقت . أنا أمرتها بذلك يا علي .

وسأله سراقة بن مالك الرجل الذي خرج في أثره لما هاجر — عليه السلام — من مكة إلى المدينة ، فقال :

— يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟

فشبك — ﷺ — أصابعه فقال :

— دخلت العمرة في الحج هكذا إلى يوم القيامة .

تعجل علي بن أبي طالب إلى رسول الله — ﷺ — واستخلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي رضي الله عنه ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل قال :

— ويلك ! ما هذا ؟

— كسوت القوم ليتجملوا به إذا ما قدموا في الناس .

إن البز كان للمسلمين جميعا ولم يكن للجيش وحدهم ، فقال علي في غضب لصاحبه الذي خلفه على جنده :

— ويلك انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله — ﷺ — .

فانتزع الحلل من الناس فردها في البز ، وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم ، فاشتكى الناس عليا ، فقام رسول الله — ﷺ — في الناس خطيبا ، قال :

— أيها الناس ، لا تشكو عليا ، فوالله إنه لأخشن في ذات الله من أن يُشكى .

ثم نهض رسول الله — ﷺ — ونهض معه الناس يوم التروية وقد تزودوا بالماء ، وكان اليوم الثامن من ذي الحجة . إلى منى وأحرم بالحج كل من كان

أحل، فصلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الظهر بمنى والعصر والمغرب والعشاء، وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة، وأمر — صلى الله عليه وسلم — أن تضرب له قبة من شعر بنمرة، فأتى — صلى الله عليه وسلم — عرفة ونزل فى تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت، ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته، وأمر ربيعة بن أمية بن خلف أخا صفوان بن أمية وكان صيتا أن ينادى بكل ما يقول، فوقف ربيعة تحت صدر ناقته يردد فى صوت جهورى ما يقول — صلى الله عليه وسلم — ليسمعه الناس الذين ملأوا وادى عرفة.

حمد عليه السلام الله وأثنى عليه، ثم راح يعلن حقوق الإنسان:

— أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع. ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل — فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله فليحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب

مضر [١] الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحدا تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد . أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد .

---

(١) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس لبنا فى قدح شربه أمام الناس ، فعلموا أنه — ﷺ — لم يكن صائما ذلك اليوم يوم عرفة . وأمر عليه السلام بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ، فصلاهما مجموعتين فى وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين ، لأنه لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر ، لأنه دخلها فى اليوم الرابع وخرج يوم الثامن فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات ، فالجمع للسفر .

ثم ركب — ﷺ — راحلته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القبلة ، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب :

— لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الشيطان ومن وسوسة الصدر ومن شتات الأمر ومن شر ذى شر .

اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين .

وجاءه — ﷺ — جماعة من نجد فسألوه :

— كيف الحج ؟

فأمر مناديا ينادى :

— الحج عرفة . من جاء ليلة جمع (أى المزدلفة) قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج . أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه .

وقال — صلى الله عليه وسلم — :

— وقفت هٰهنا وعرفة كلها موقف .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واقفا على جبل النور ، وخشى أن يتزاحم الناس فى الحج على ذلك الجبل فأعلن أن عرفة كلها موقف . ونزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »(١) .

فلما قرأها — صلى الله عليه وسلم — على الناس بكى عمر ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— أبكانى أنا كنا فى زيادة . أما إذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص .

— صدقت .

وساد الناس وجوم ، ترى أنزلت هذه الآية لتنعى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟!

ثم أردف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن زيد خلفه ودفع إلى مزدلفة وهو يأمر الناس بالسكينة فى السير ، فلما كان فى الطريق عند الشعب الأبتر نزل فيه فتوضأ وضوءا خفيفا ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة .

وصلى المغرب والعشاء مجموعتين فى وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والصبيان أن يرموا ليلا . فذهبوا من المزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الزحمة ، فأفاضت سودة وأم حبيبة فى النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبى — صلى الله عليه وسلم — وقدم عليه السلام عبد الله بن عباس فى ضعفة أهله فقد كان غلاما ، ولم يأذن — صلى الله عليه وسلم — للرجال فى ذلك لا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم . وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

---

(١) المائدة ٣

فقام — ﷺ — وصلى بالناس الصبح مغلسا ، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحد ، ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا . ثم إنه — ﷺ — دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس وأردف خلفه الفضل بن العباس ، وجاءته امرأة تسأله فقالت له :

— يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة فأحج عنه ؟

— نعم .

فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل — ﷺ — يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر فقال العباس :

— يا رسول الله لويت عنق ابن عمك .

— رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان .

فلما وصل — ﷺ — إلى وادى محسر وهو أول منى قال :

— عليكم بحصى الخزف الذى نرمى به الجمرة .

وسلك — ﷺ — الطريق التى تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفل سبع حصيات وبلال وأسامة أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوبه . وقطع عليه السلام التلبية عند رمى كل حصاة وهو راكب ناقته .

وخطب — ﷺ — بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض ، وذكر حرمة يوم النحر وحرمة مكة على جميع البلاد فقال :

— يأيها الناس أى يوم هذا ؟

— يوم حرام .

— فأى بلد هذا ؟

— بلد حرام .

— فأى شهر هذا ؟

— شهر حرام .

— فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا .

ثم رفع رأسه وقال :

— اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ثم انصرف — ﷺ — إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثة وستين بدنة وهى التى قدم بها من المدينة ، لكل سنة بدنة . فقد كان عمره — ﷺ — فى ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، ثم أمر عليا فنحر ما بقى وهو تمام المائة وهو ما أتى به على من اليمن ، جاء بعده مع جيشه الذى لحق به .

وقال — ﷺ — لعلى :

— اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا من كل بعير جذبة من لحم واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحسو من مرقها .

إن الزاهد الكريم الذى كان يمر هلال ثم هلال ولا يوقد فى دار من دوره نار لطبخ قد نحر مائة بدنة ووزع لحومها على الناس ، إنه غنى ولكنه يتعفف ليكون أسوة لأمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الناس .

وأخبر — ﷺ — أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة كلها منحر . ثم راح معمر بن عبد الله يحلق رأسه عليه السلام ، فطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل .

ثم تطيب — ﷺ — طيبته عائشة بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف

الإفاضة ، ثم نهض — صلى الله عليه وسلم — راكبا إلى مكة فطاف فى يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر . ومر على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فهرع إليه آل العباس بإناء من سقاية العباس وكانوا يضعون فى السقاية التمر والزبيب ، فشرب — صلى الله عليه وسلم — وسقى فضله لأسامة وقال :

— أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا .

ثم شرب من ماء زمزم بالدلو وقد نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب ، فقد كانت له السقاية فى الجاهلية والإسلام ، ثم رجع — صلى الله عليه وسلم — إلى منى فصلى بها الظهر وبقى فى منى وإن كان يزور البيت كل ليلة ، وكان أزواجه — صلى الله عليه وسلم — يرمين بالليل ، ثم نهض — صلى الله عليه وسلم — من منى فى اليوم الثالث الذى هو يوم النفر الآخر ، ونفر معه المسلمون بعد الزوال . واستأذنه عمه العباس فى عدم المبيت بمنى فى الليالى الثلاث من أجل السقاية فرخص له فى ذلك ، وضرب له — صلى الله عليه وسلم — أبو رافع قبة فى الأبطح فجاء فنزل ، وكان عليه السلام قال لأسامة :

— غدا ننزل بالمحصب .

وهو المحل الذى تحالف فيه قريش وكنانة على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا إليهم النبى — صلى الله عليه وسلم — ليقتلوه ، وكان ذلك سببا لكتابة صحيفة المقاطعة . ولما نزل — صلى الله عليه وسلم — بالمحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ثم أن عائشة قالت :

— يا رسول الله ، أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟

فدعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :

— اخرج بأختك من الحرم ثم افرغا من طوافكما حتى تأتيانى هٰهنا بالمحصب .

فاعتمرا من التنعيم مكان عمرة عائشة التى فاتتها ، وفرغا من طوافهما فى

جوف الليل فأتياه — صلى الله عليه وسلم — بالمحصب فقال :

— فرغتما من طوافكما ؟

— نعم .

فأذن فى الناس بالرحيل ، وأمر — صلى الله عليه وسلم — الناس ألا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ، وقالت له صفية أم المؤمنين :

— ما أرانى إلا حابستكم لانتظار طهرى وطواف الوداع .

كانت قد حاضت بعد طواف الإقامة ليلة النفر من منى ، فقال لها — صلى الله عليه وسلم — :

— أو ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر ؟

— بلى .

— يكفيك ذلك .

وجاء بريدة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان مع على بن أبى طالب فى اليمن وجعل يشكو عليا له — صلى الله عليه وسلم — لأنه حصل له منه جفوة ، فجعل يتغير وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— يا بريدة لا تقع على علىّ ، فإن عليا منى وأنا منه . ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ .

— نعم يا رسول الله .

— من كنت مولاه فعلى مولاه .

ودخل — صلى الله عليه وسلم — مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، فوقف فى الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة ، فدعا الله وألزق جسده ووجهه بالملتزم وطاف سبعا ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى ، فلما وصل — صلى الله عليه وسلم — إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدير خم بقرب رابغ جمع الصحابة فقال — صلى الله عليه وسلم — :

ـــ أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني مسئول وإنكم مسئولون فما أنتم قائلون ؟

ـــ نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيرا .

ـــ أليس تشهدون أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟

ـــ بلى نشهد بذلك .

ـــ اللهم اشهد .

ـــ إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ولن تتفرقا حتى تردا على الحوض . ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

ـــ نعم .

ـــ ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

ـــ نعم .

ـــ ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

ـــ نعم .

ورفع ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يد علي كرم الله وجهه وقال :

ـــ من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ووصل ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى ذي الحليفة فبات بها . لأنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كره أن يدخل المدينة ليلا . ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال :

ـــ لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهارا .

وكان أصاب الناس عند خروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحج جدرى منعت كثيرا من الناس من الحج معه ، فلما قابل أم سنان الأنصارية بعد عودته قال لها :

ـ ما منعك أن تكونى حججت معنا ؟

ـ لنا ناضحان ، حج أبو فلان (زوجها) وولدى على أحدهما ، وكان الآخر نسقى عليه أرضنا .

فقال تطييبا لخواطر من تخلف بسبب المرض أو لعدم وجود راحلة :

ـ عمرة فى رمضان تعدل حجة معى .

التذييل

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض ، وكان أمر هذه الخلافة مقررا قبل خلق آدم ، ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾[2] . ثم خلق الله زوجه فكانا يأكلان من الجنة رغدا ، ونهاهما ربهما عن شجرة الخلد فوسوس الشيطان لآدم ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[3] . ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[4] .

وهبط آدم وحواء إلى الأرض ليكون آدم خليفة لله فيها ، فكانت الأسباب موصولة بينه وبين السماء وإن راح يهيم فى وادى الدموع ، فكانا يأكلان من طيبات ما رزقهما الله ويشكران الله ويلتمسان التوبة . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .

وجعل الله لهما بنين وحفدة فكان الخير للجميع ، وما كان فيهم غنى أو فقير فقد كانت الحياة بسيطة والقلوب عامرة بالإيمان ، فكانت السعادة الحقة ترفرف عليهم . كانوا يمضون بعض الوقت فى السعى وراء القوت لإشباع جوع البطون ، وجل الوقت فى الابتهال إلى الله والتمسك بمبادئ الخير لإشباع جوع النفس .

---

(١) الحجرات ١٢ (٢) البقرة ٣٠

(٣) طـه ١٢٠ (٤) طـه ١٢١

واستأنس الإنسان بعض الحيوان فكان بعض أفراد الأسرة يعملون فى الرعى وبعضهم فى الصيد وبعضهم فى صنع السهام والحراب وأدوات القتل ، وأصبح لكل أب أسرة فقبيلة ، وعرفت كل قبيلة نوعا من التخصص وتعددت حاجاتها فى نفس الوقت فكان لا بد من وجود سوق لتبادل الطيبات ، فقد ظهرت حاجة كل فريق إلى ما عند الفريق الآخر ، فكان نشأة نظام المقايضة .

وقامت فى وجه المقايضة صعوبات ، فتبادل الطيبات يتوقف على توافق الرغبات ، وإن توافقت الرغبات فقد تتفاوت القيمة بين الطيبات التى يرغب فى تبادلها ، وقد يصعب تجزئة كثير منها . فكان لا بد من وجود وسيط ثابت تنسب إليه الطيبات ، وقد اختلف ذلك الوسيط باختلاف البلاد ، ففى بعض البلاد كانت المواشى هى الوسيط الذى ينسب إليه باقى الطيبات ، وفى بلاد أخرى كان التبغ أو القماش أو السكر أو الصوف .

ذللت هذه الطريقة بعض الصعوبات ولكنها كانت لا تتمتع بالدقة التى يستريح إليها الطرفان ، فاتخذت المعادن وسيطا تقوم به الطيبات . وقد استخدم الحديد فى أول الأمر ولكن نظرا الثقل وزنه وصعوبة حمله اتخذ بعض كبار التجار والصيارفة سبائك من النحاس والبرنز تحمل أسماءهم أو ما يدل عليهم ، فكانت تلك النقود بضمان أصحابها .

وانتشرت التجارة واتسعت رقعة التبادل وتنوعت الطيبات واشتد الطلب عليها ، فاستعمل الذهب والفضة ، وكانت الفضة أكثر النقود استخداما ، ففى بابل استخدمت شواقل الفضة فيسرت حركة التبادل وانتشرت الأسواق بين نهرى دجلة والفرات .

واستعمل الإغريق والرومان العملة الذهبية والفضية ، فكانت على شكل أقراص مستديرة ، وعرفت فارس النقود منذ تاريخها البعيد ، ففى عهد الساسانيين ضربت نقود عليها صورة أردشير الأول محفوظة بمتحف

كوبنهاجن .

وكانت إيران تنتج الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخرى والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة ، وقد قامت فيها صناعة الحرير البرية تتبع طرق القوافل ، فمن المدائن العاصمة على شاطئ دجلة كان الطريق الكبير يؤدى إلى همدان عن طريق حلوان وكنجاور ، وقد تفرعت منه طرق عديدة : طريق ناحية الجنوب يخترق خوزستان وفارس وينتهى عند الخليج الفارسى ، وطريق يذهب إلى الرى قرب طهران الحالية يبلغ به السائر بحر قزوين مخترقا منحدرات جبال جيلان وسلسلة البرز ، أو يسير منه إلى خراسان ليستمر فى رحلته حتى الهند عن طريق وادى كابل ، أو حتى الصين عن طريق تركستان وحوض طارم .

وكانت إيران على صلة بالدولة الرومانية ، فقد كانت مدينة نصيبين مركزا هاما ونقطة الاتصال بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الإيرانية . ولم يقتصر الأمر على الطرق البرية فقد اهتم الأكاسرة والأباطرة بالتجارة البحرية ، فحينما أصبح أردشير الأول إمبراطورا على إيران وسع المرافئ البحرية القديمة ، ولما ازدهرت الدولة الرومانية الشرقية كانت الأساطيل البحرية تخرج من القسطنطينية بالطيبات وتعود إليها بألوان الترف من الشرق ، فكانت القسطنطينية رمزا للثروة ، ومدينة لم يكن لكنوزها نهاية تنتهى إليها ولا معيار تقاس به .

وكانت العرب فى الجاهلية يشتغلون بالتجارة ويتمادحون بكسب المال ، ولا سيما قريش . وكان لقريش فى السنة رحل أربع ؛ فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به تجارته إلى الشام ، والثانى عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الإخوة

فلا يتعرض لهم أحد .

هذا ما كان من أمر قريش وسائر أهل الحجاز ، وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجارتهم كثيرة ومعايشهم وافرة لما فى بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة ، ونحو ذلك من أسباب الثروة والغنى .

وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم فى الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال . فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب فى رفاهية العيش ورواج التجارة .

وكان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر ، منها « دومة الجندل » كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون فى أسواقها للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة وهو من بيوع الجاهلية التى أبطلها الإسلام ، وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاه فى يده ويقول : أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصابتها فهى لك بكذا .

وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ، ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة ، وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف

الشهر ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب ، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر .

ومنها « سوق هجَر » اسم لجميع أرض البحرين ، وكانوا ينتقلون إليها فى شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم ، وقد أرسل إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد دخل فى دين الله .

ومنها سوق عمان وكانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى .

ومنها « سوق المُشقَّر » حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب ، وبيع الملامسة على أوجه ، وهى أن يأتى بثوب مطوى أو فى ظلمة فيلمسه المشترى فيقول له صاحب الثوب : بعتكه بكذا ، بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . الوجه الثانى أن يجعلا نفس اللمس بيعا بغير صيغة زائدة ، الوجه الثالث أن يجعلا اللمس شرطا فى قطع خيار المجلس وغيره ؛ وهو أيضا من البيوع التى أبطلها الإسلام .

ومنها « الشِّحْر » ساحل البحر بين عُمان وعدن ، تقوم فى النصف من شعبان ، وكان بيعهم فى هذه السوق أيضا برمى الحصاة وإلقاء الحجارة كما فى سوق دومة الجندل .

ومنها « سوق عدن » كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان ، فتشترى التجارات وأنواع الطيب .

ومنها « سوق صنعاء » كانوا إذا ارتحلوا من عدن والشحر تقوم سوقهم بصنعاء فى النصف من شهر رمضان إلى آخره . وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ،

ومنها كان يجلب الأدم (الجلد المدبوغ) والبرود ، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان فى اليمن .

ومنها « سوق ذى المجاز » كانت بناحية عرفة إلى جانبها .

ومنها « سوق مجنة » وهى التى عناها بلال مؤذن الرسول بقوله متشوقا إليها بعد الهجرة :

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

وكانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج ويحضرها كثير من قبائل العرب .

ومنها « سوق حُباشة » كانت فى ديار بارق نحو قنونا من مكة إلى جهة اليمين ، ولم تكن من مواسم الحج وإنما كانت تقام فى شهر رجب .

ومنها « سوق عُكاظ »، وهو موسم معروف للعرب ، بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم ، وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراءه « قرن المنازل » بمرحلة من طريق صنعاء ، وكان المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صخور يطوفون حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتفاخرون ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم .

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب .

وكانت الفوائد على القروض معترفا بها فى بابل وفى الإمبراطورية الرومانية فى أيام وثنيتها وأيام اعتناقها للمسيحية ، وفى إيران وفى بلاد العرب فى الجاهلية . .

وإن الأستاذ أنور إقبال قرشي فى كتابه الإسلام ونظرية الفائدة يقول : « لقد كان إقراض النقود بفائدة عملا ممنوعا عند الإغريق ، فأرسطو الذى كانت لأحكامه الفعالة أثرها العظيم على الأجيال التالية ذم الفائدة بكلمات بالغة القوة ، فقد شبه المال بدجاجة عاقر لا تبيض ، والغرض الأوحد من استخدام المال عند أرسطو هو تسهيل التبادل وإشباع الاحتياجات البشرية ، لقد كان هذا عنده هو الغرض الطبيعي الأسمى للمال . فالمال لا يمكن استخدامه مصدرا للتزايد ، أى الازدياد بالفائدة ، أى أن تزايد المالك بالفائدة كان أغرب وسائل اكتساب المال ، إن قطعة من النقود لا يمكن أن تلد قطعة أخرى ، تلك كانت عقدة أرسطو ، والنتيجة الواضحة أن الفائدة جائرة ، وقد ذم أفلاطون أيضا الفائدة » .

ويقول : « حرمت الإمبراطورية الرومانية فى عهودها الأولى تقاضى أية فائدة ، لكن الفائدة جعلت تظهر تدريجيا مع إتساع رقعة الإمبراطورية ونشوء فئات التجار ، غير أن قيودا شديدة فرضت على معدلات الفائدة وكان تنفيذها يراقب بدقة ، ولقد كان الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدينين »[١] .

إن أرسطو قد انتقد الفائدة ، وكذلك فعل أفلاطون ، وليس معنى ذلك أنها كانت محرمة عند الإغريق ، فلو كانت محرمة لما كان هناك من سبب لانتقادها . أما القول بأن الإمبراطورية الرومانية حرمت الفائدة فى عهودها الأولى فقول مردود ، فالفائدة كانت سائدة منذ نشأة الدولة الرومانية ؛ وكذلك القول بأن الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدينين يجافى الحقيقة ، فالدولة البابلية هى أول دولة فى التاريخ نظمت الفائدة وعملت على حماية المدينين قدر المستطاع

---

(١) الإسلام والربا — تأليف إقبال قرشي — ترجمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .

من المرابين ، وإن قانون حمورابى حدد سعر الفائدة قبل أن تنشأ الدولة الرومانية .

أما فى جزيرة العرب فى الجاهلية فقد كانت الفوائد مركبة ، وكانت تتضاعف كل سنة ، وإن الإسلام هو الدين الذى حرم الربا تحريما قاطعاً ، وسنناقش هذا الموضوع فى هذا البحث عندما نتحدث عن المال فى الإسلام .

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم قبل الإسلام ، ولا فى زمن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — والخلفاء الراشدين . فقد كانت العملة الرومانية والعملة الفارسية هى العملة السائدة فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، وكان عبد الله بن الزبير أول من استعمل الدراهم المنقوشة أيام منافسته لمعاوية بن أبى سفيان على الخلافة ، فكتب على أحد وجهى الدرهم « محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » .

وكان هم الأكاسرة والأباطرة ملء خزائنهم بالذهب والفضة للإنفاق على الجيوش وأبهة الملك وعظمته ، فكانت الضرائب الجائرة التى تنقض ظهر الشعب ، فوزير المالية فى فارس يتولى رئاسة الضريبة العقارية ، ويقع عبء هذه الضريبة على الزراعة ، ولما كانت الضريبة تفرض حسب الخصوبة وجودة زراعة القرى أو رداءتها ، فقد أصبح عليه أن يسهر على زراعة الأرض وريها وغير ذلك .

ولم يكن اختصاصه يشمل الضريبة العقارية وحدها ، بل وسع الضريبة الشخصية أيضا ، فكان رئيس كل من يمتهن حرفة يدوية — عبيدا أو حراثين أو تجارا . وكانت المصادر الرئيسية للدخل فى الدولة تتكون من الضريبتين العقارية والشخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة بمبلغ محدد ، وعلى السلطات المختصة أن توزعه بقدر استطاعتها بين دافعى الضرائب . وكذلك كانت الضريبة العقارية تجبى بنفس الطريقة ، فإن التقدير يتم حسب ما تنتجه الأرض من غلات ، وعلى كل قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة

الأرض .

وكان تحصيل الضرائب وتوزيعها سببا فى الجور وسوء الحصيلة من ناحية الموظفين ، ولأنه تبعا لهذه الطريقة كانت مبالغ الدخل تتفاوت كثيرا من سنة لأخرى ، فإنه كان من غير الممكن عمل حساب تقريبى مقدما للحالة المالية واستخدام ما يجبى منها ، ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية فى الصعوبة وكان ينتج عن ذلك غالبا أن تفاجئ الحرب الدولة فيعوزها المال ، وفى هذه الحالة كان ينبغى فرض ضرائب استثنائية ، وكان عبئها الفادح يقع غالبا على الأقاليم الغربية الغنية ، وخاصة العراق (بلاد بابل) .

ويضاف إلى الضرائب المنظمة الهبات العادية ، والتى يحسب منها التحف التى تقدم للملك — جبرا — فى عيدى النوروز والمهرجان ، وكذلك كان دخل الجمارك موردا من موارد الدخل .

وكانت نفقات الدولة أول ما تنصب على الحرب ومصاريف البلاط ورواتب الموظفين ، فإذا قامت الدولة بمشروع عام فالجهة التى ستستفيد منه تتحمل عبء التمويل ، فكانت تفرض ضرائب استثنائية حتى يتيسر التنفيذ .

وكان الأمر فى الإمبراطورية الرومانية لا يختلف فى كثير أو قليل عن الأمر فى إيران ، فالضرائب الباهظة تكاد تدفع بالولايات إلى هاوية الإفلاس ، وقيصر يحتكر صناعة الحرير ليملأ خزائنه بالذهب النضار ، والحرب المشبوبة بين إيران والرومان تلتهم ما فى الخزائن ، فتقوم الكنيسة لتمويل الحملات بقروض مقابل فوائد يتفق عليها ، ولا يجد قيصر أمامه إلا الشعب فى إمبراطوريته المترامية الأطراف يبتز منه عرق الجبين وما يدخر للأيام .

وجاء الإسلام ولم ينظر إلى المال نظرة الأباطرة والأكاسرة ، فلم يجعله الإلـٰه المعبود الذى تعنو له الجباه ، بل جعل له وظيفة اجتماعية هدفها إسعاد الناس .

والإسلام أول نظام فى الوجود وضع المال فى خدمة الجماهير وأنصف بحق الفقراء من الأغنياء ، وأرهف حس الجباة فكانوا أمناء رحماء ، فقد بعث الله رسوله — ﷺ — هاديا ولم يبعثه جابيا .

وذاع أمر الإسلام وعدله وسماحته فى الولايات الرومانية والولايات الفارسية ، فيسر ذلك لجيوش الإسلام فتح الشام ومصر والعراق وشمال أفريقية ، فأهالى تلك البلاد كانوا يرحبون بالفاتحين طلبا للعدل وإن كانوا على دين الرومان أو الفرس .

واستمر النظام المالى فى الإسلام فريدا فى بابه تسعد به الدول الإسلامية ، بينما سارت الدول الأخرى فى طريقها ؛ الشعوب تتعارف ، وطرق المواصلات تعبد ، والتجارة تنشط ، ومعدلات الفوائد تتأرجح بين الزيادة والنقصان حسب الأحوال الاقتصادية فى العالم ، والمدينون يئنون تحت وطأة النظم الجائرة التى تشرع لخدمة الأقوياء ، وعبادة المال تتأصل فى النفوس ، وجهود تبذل لجمع المال وانتهاز الفرص واستغلالها استغلالا أنانيا ، فيشتد عود الرأسمالية ويتكون نظام رأسمالى يستغل الطبيعة والإنسانية ، ويزعزع الاستقرار الاجتماعى ، ثم تنطلق نزعاتها المخربة من عقالها لتفتك بالمجتمع .

وقام بعض الاقتصاديين فى القرن الثامن عشر يباركون الرأسمالية ويشرعون أقلامهم للدفاع عنها ، وفلسفوا النظام الرأسمالى الحر فقالوا بوجوب ترك الأفراد أحرارا لتحقيق مصالحهم الشخصية ؛ فهم يختارون حرفتهم أو نشاطهم ولهم حرية التملك وحرية العمل . ولا يحد من هذه الحرية إلا شرط واحد هو عدم تعارض سلوكهم مع تحقيق الأفراد الآخرين لمصالحهم الذاتية .

فالتدخل الحكومى يجب أن يكون فى أضيق نظام ممكن سواء فى ميدان الإنتاج أو فى ميدان التوزيع ، فالإنتاج فى نظرهم ينظم نفسه بنفسه ولا يجب أن

تتدخل الحكومة إلا إذا كان هذا التدخل فى صالح المجموع .

والفردية هى أحد أركان هذا النظام الرأسمالى الحر ، فينبغى السعى إلى تحقيق أقصى سعادة ممكنة للفرد .

ونظريتهم فى التوافق تقول : ليس هناك تعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ؛ فالمجتمع فى نظرهم أسرة كبيرة ذات هدف موحد ، وأنه ما دام الفرد يحقق سعادته فإن سعادة المجموع سوف تتحقق ، فالمنفعة الكلية للجميع تتمشى مع المنفعة القصوى للفرد ، فالمصلحة العامة يمكن تحقيقها بفحص دقيق للمصالح الفردية ، ويؤمن أصحاب هذه النظرية بأن هذا التوافق يحدث تلقائيا .

ويؤمنون بأن الثقة فى المنافسة الحرة ، وجهاز الثمن قوة حقيقية موجهة للحياة الاقتصادية ، وأن الربح هو خير حافز على الإنتاج والتقدم الاقتصادى .

والقوانين التى تحكم هذا النظام إنما تشتق فى نظرهم من نظام طبيعى خير ، فالإنسان لو ترك وشأنه لن يحقق منفعته ومصلحته الشخصية فحسب ، بل سوف يعمل على تحقيق الصالح العام ، فحوافز الإنسان على التصرف لا تجعل مصلحة الفرد تتعارض مع مصلحة المجموع ، فسلوك الإنسان فيه نزعات طبيعية كحب النفس والأثرة والعطف على الغير والرغبة فى العمل والشعور بالفضيلة والرغبة فى أن يكون حرا . وهذه الدوافع من التوازن بحيث تجعل الفرد وهو بسبيل تحقيق مصلحة نفسه إنما يحقق مصلحة الغير ، فالأثرة وشهوة حب النفس يقابلها الشعور بالعطف . فالنظام الطبيعى بالرغم من بساطته إلا أنه يحقق مصلحة المجتمع ، فهو صادر عن الميول الطبيعية للإنسان ، وإن تدخل الأنظمة الوضعية مع النظام الطبيعى تعوق إيجاب هذا النظام لآثاره الحميدة ، وهذا النظام الطبيعى يفوق أى نظام آخر من عمل الإنسان .

ومن ثم نجد أن الحكومات تخدم المجتمعات على نطاق أكبر لو أنها لم تتدخل فى

حرية الأفراد ، فهذه النظرية لا ترى خيرا فى تدخل الدولة فى ميادين الأعمال ، وهى لا توافق على القيود والتنظيمات الموضوعة للأجور ، وهى تنادى بالقضاء على جميع مظاهر الاحتكار فى شئون العمال أو غيرها ، فالمنافسة غير المقيدة أو المشوبة بأى شائبة هى وحدها القوة الاجتماعية المنظمة للحياة الاقتصادية وتحقيق المنافسة الحرة ، وإعلاء شأنها هو الشرط الرئيسى للتقدم الاقتصادى .

وجاءت الاشتراكية تحاول تضميد ما خلفته الرأسمالية من جراح ، فنادى رسل الاشتراكية بتقويض النظام من الجدران ، وقالوا إن « الأمة » فكرة اخترعها الرأسماليون ، وإن « الوطن » مجرد وسيلة يستغلها البرجوازيون لاستغلال العمال ، أما القانون فهو سلاح يفرض على الطبقة العاملة أن تظل فى بؤسها ، والدين مجرد مخدر للجماهير ، والمدارس حقول لتربية العبيد ؛ فألفت الاشتراكية المادية الملكية الفردية وجعلت العنف قانونها الثورى ! وقد قال مستر تشرشل عن الرأسمالية والاشتراكية : « الرأسمالية توزيع الخير على الناس دون مساواة ، وأما الاشتراكية فتوزيع البؤس على الناس بالتساوى ، فلنحاول إذن أن نتخذ نظاما يحقق أكبر خير لأكبر عدد من الناس » .

فهل المسيحية تستطيع أن تحقق هذا النظام المنشود ؟ فلنصغ إلى ما قال ماركس وأنجلز عن ذلك : « لقد كان أمام المبادئ المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرنا للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسس والمبشرين . وقد أباحت هذه المبادئ الرق فى العالم القديم ، وغطت عبودية الإنسان فى الأرض فى العصور الوسطى ، وهى على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العاملة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض فى وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين فى أن يتحول الحاكمون إلى الخير . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج

أمراض المجتمع إلى العالم الآخر وتبرر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تعلن أن شرور الظالمين التى تقع على المظلومين إنما هى عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب اختارت حكمة الله التى لا نعرفها أن تقع على المختارين من عباده ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تبشر بالجبن والانحطاط بالنفس وقبول الأمر الواقع والخضوع والذلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ، وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إننا نحتاج إلى الشجاعة والثقة والكبرياء والاستقلال أكثر مما نحتاج إلى الخبز ، والمبادئ الخلقية المسيحية ملتوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية » .

وجد ماركس وأنجلز وزعماء الشيوعية هذه المثالب فى المسيحية فكفروا بها ، فهل يدافع الإسلام عن ظلم الطبقات العاملة ؟ وهل إذا وجد السلطان الظالم يأمر الإسلام أتباعه أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يخلعوا طاعته من أعناقهم ؟ وهل ينقل الإسلام مشاكل علاج أمراض المجتمع إلى يوم الحساب ؟ هل يرى فى شرور الظالمين للمظلومين عقابا للمظلومين عن ذنب اقترفوه ؟ إن الإسلام يعالج شئون الدنيا مثلما يعالج شئون الآخرة ، فهو دنيا ودين ، يساوى بين الخاضعين لأحكامه فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف . الناس لآدم والمؤمنون إخوة والناس سواسية أمام الشريعة العادلة ، لصاحب العمل حقوق وعليه واجبات ، وللعمال حقوق وعليهم واجبات ، لا تملق لطبقة على حساب طبقة ، بل العدل المطلق للجميع . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . لا المال يرفع صاحبه ولا الفقر يحط من شأن الفقير . إنه دين تلتقى فيه المثالية بالواقعية ، وتمتزج فيه الروحانية بالمادية ، ويسعى فيه المرء لخير الدنيا والآخرة ، ويحاول أن يضم فى إهابه السماء والأرض . إنه دين العقل والحكمة

والفقه ، دين الفطرة ؛ ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾[١] .

هدم المفكرون المسيحيون الدين لأنه يقف فى سبيل التقدم ويقف فى سبيل التطوير ولا يحقق الخير العام للبشرية . فلماذا يفكر بعض المسلمين فى الهجوم على الدين دون أن يحاولوا أن يفتحوا أعينهم على ما فيه من هداية وسياسة وسيادة ورفعة وما يحقق الخير العام للجميع ؟ إنه التقليد والافتنان بكل ما يأتى من الغرب وإن كان فيه الدمار والشقاء والضياع والفوضى .

ترك المفكرون المسيحيون الدين ونبذوا الآلهة ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا إلـٰه معبود فقد عبدوا الذهب وساقوا الناس بأفكارهم إلى عبادة المال وتقديسه ، وجعلوا الجوع القوة المحركة للنشاط البشرى ، والحاجة المادية للإنسان القلم الذى يسجل به التاريخ ، فانطلقت كفاءات هائلة تستغل الطبيعة دون أن تتطور التطور الخلقى والنفسى الذى يتلاءم مع الانطلاقة العظيمة ، فعجزت النفس الإنسانية عن أن تلحق بالتقدم الجبار الذى حققه الاقتصاد والسياسة والعلم ، فكان الضياع والشقاء والدموع والقلق والخوف الدائم من المستقبل المجهول .

وصل الإنسان إلى القمر ولم يكتشف بعد كيف يقاوم الزكام ، وصنع قنابل ذرية كافية لدمار العالم ولم يحاول أن يزيد فى رقعة الأرض المنزرعة ليوفر القوت للذين يموتون جوعا كل يوم فى أرض البؤس والشقاء ، وتعددت سبل الاتصال بين الشعوب وقربت المسافات ولم تتآلف القلوب بل زادت نفورا ، ولم يصبح البشر أمة واحدة ، بنعمة الله إخوانا ، بل شعوبا متعادية متصارعة على الحياة ، وقد خلق الله الأرض وجعلها تكفى الناس جميعا أحياء وأمواتا ، ولكن الناس أبوا

---

(١) الملك ١٠

إلا الضياع فلا حرية ولا إخاء ولا مساواة .

إن الرأسمالية ظلم للفقراء وعدوان صارخ على الإنسانية واضطهاد لها وتهديد للسلام الاجتماعى ، وإن الاشتراكية العلمية قد جعلت السعادة المادية هدف الحياة الأوحد فحولت هى والرأسمالية الناس جميعا إلى عبيد للمال . وقد قال نيتشة فى كتاب إرادة القوة : « إننا نحتاج لكى نحل عقدة المال إلى ثورة وتجديد كامل للمجتمع ، وقبل أن توضع الحياة الاقتصادية فى مكانها المتواضع الذى يناسبها يجب أن تخضع للحياة الخلقية والروحية فى الجماعة ، ويجب أن تكون العدالة لا الثروة مقياس المنفعة ، العدالة ؟ إنها على النقيض من روح الرأسمالية السائدة ، والاشتراكية ليست سوى تقليد العمال لساداتهم تقليد القردة ، وإذا أردنا أن نعالج العمال من داء الاشتراكية فلا بد أن تعالج الطبقات الراقية نفسها من داء الرأسمالية » .

هذا ما قاله نيتشه ، وأنا أقول إن الأمر لا يحتاج إلى ثورة بل عودة إلى النظام المالى فى الإسلام ، ففيه محاسن الرأسمالية دون عيوبها ومحاسن الاشتراكية دون عيوبها ، والمال فى الإسلام ليس معبودا بل إنه فتنة ، ولا يقوم بوظيفة اقتصادية وحسب بل إن وظيفته فى المقام الأول وظيفة اجتماعية تستهدف الخير العام للجميع .

إذا تركنا تعريف « المال » الاقتصادى أو القانونى يمكننا أن نقول إن المال هو ما يستحوذ عليه الإنسان من طيبات الله ، فالهواء وإن كان ذا قيمة لا تقدر لأنه بدونه تتوقف الحياة ، فقد قضت حكمة الله أن يكون لمخلوقاته جميعا ، أن يكون للخير العام وأن يستحيل على الإنسان أن يستحوذ عليه ، فهو ليس مالا ، أما الأرض وما عليها من نباتات وحيوانات ، وما فى بطنها من زيوت ومعادن وأحجار كريمة ، وكل الطيبات ، فهى مال : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم

واشكروا الله ﴾[١] . ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾[٢] . فالله قد أحل لنا الطيبات وحرم الخبائث ، نكسب طيبا وننفق طيبا فتطيب أنفسنا وتتآلف قلوبنا ونصبح بنعمة الله إخوانا .

والمال فى الإسلام ليس مال أحد من البشر ولكنه مال الله والناس مستخلفون فيه ؛ فلا ينبغى كسب المال إلا من السبل التى يحددها صاحب المال وأن ينفق فى السبل التى يحددها للإنفاق ، فإن أساء المستخلف فى مال الله ولم يوفه حقه فللحاكم أن ينزع ذلك المال منه وأن يوجهه للخير العام . فالحكومة هى الساهرة على تنفيذ أوامر الله ونواهيه ، فإن لم تقم بواجبها فعلى الشعب أن ينحيها عن الحكم ، فإن قصر الشعب فإن الله يذهب الجميع ويأتى بخلق جديد .

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾[٣] .

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾[٤] .

قضى الإسلام على عبادة المال وحد من طغيان الثروة ، فالمال فتنة وزينة فى الحياة الدنيا واختبار . ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾[٥] ، ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا

---

(١) البقرة ١٧٢ (٢) البقرة ٢٦٧
(٣) النور ٣٣ (٤) الحديد ٧
(٥) الكهف (٦) المؤمنون ٥٥ — ٦١

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(١) . ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾(٢) . ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾(٣) . ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾(٤) . ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾(٥) .

إن الإسلام لا يحرم الطيبات : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(٦) . ولكنه يخضد شوكة المال ويحاول أن يقضى على غروره وأن يقاوم اتجاهه العام للصد عن الحق والخير : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾(٧) . ﴿ ويل لكل همزة لمزة . الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده ﴾(٨) . ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾(٩) .

كان الظلم الاقتصادى هو السم الذى قضى على جميع الحضارات منذ حضارة بابل ومصر القديمة إلى اليوم ، وكان طغيان المال وغروره هو المعول الذى قوض الإمبراطوريات القديمة والحديثة على السواء ، فالدولة المصرية القديمة والإغريق والفرس والرومان قد وصلوا إلى قمة النظام الرأسمالى التى وصلنا إليها وإلى الديمقراطية التى نتشدق بها ، وقد اندثرت تلك الحضارات كما ستندثر حضارات الإمبراطوريات الحديثة ، فالمشكلة قديما وحديثا واحدة : انعدام

---

(١) المؤمنون ٥٥ — ٦١
(٢) الأنفال ٢٨
(٣) سبأ ٣٧
(٤) آل عمران ١٨٦
(٥) آل عمران ١٤
(٦) الأعراف ٣٢
(٧) العلق ٦ ، ٧
(٨) الهمزة ١ — ٣
(٩) الأنفال ٣٦

الاستقرار الداخلي وطغيان إلـٰه الذهب . إن الكارثة التى تنتظرنا لا مفر منها ما دام الناس يشيحون بأوجههم عن الدين ، إنهم كالأطفال الذين يعرضون عن الدواء الذى فيه شفاء أسقامهم ، أو كالظمآن الذى ينطلق فى إثر سراب .

إن المادية قد تحدت المسيحية فلم تستطع المسيحية أن تقف فى سبيل ذلك التحدى ، فانهار الحاجز الدينى الذى كان يقف فى وجه الجشع والطمع والأثرة وقتل الإنسان لأخيه الإنسان لتحقيق منفعة موقوتة زائلة ، فهل فى الإسلام القوة التى تواجه ذلك التحدى وتلوى ذراع المادية لتعيدها إلى الصراط المستقيم ؟

إن الإسلام يمدح المال فهو من نعم الله ، ولكنه يذم طغيانه والبخل به والغطرسة لامتلاكه والرياء فى إنفاقه ، فالله يقول فى مدح المال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[1] . ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا »[1] .

فجزاء اتباع هداية الدين فى الإسلام الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾[1] . ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صَعَدا ﴾[1] . ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله[1] .

---

(١) نوح ١٠ — ١٢ (٢) طه ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) الجن ١٣ (٤) الجن ١٦ ، ١٧ (٥) التوبة ١٢٨

والإسلام يعرف جيدا ضرورة دوران المال وأنه كالدم لا بد أن يدور دورته الكاملة فى الجسم ليظل معافى يؤدى كل عضو فيه وظيفته على خير وجه ، لذلك ذم البخل وحرم الكنز وحض على الإنفاق : ﴿ ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾(١) . ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب إليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون . ﴾(٢) . ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدعَون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٣) . ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها

---

(١) آل عمران ١٨٠ (٢) التوبة ٣٤ ، ٣٥

(٣) محمد ٣٨

الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾[١] .

ولا يقبل الإسلام أن يكون المال فى أيدى قلة من الناس لا ينفقونه فى الخير العام : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم »[٢] .

ولا يثير طبقة على طبقة ولا يرضى عن حمامات الدم ، فالمؤمنون إخوة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم »[٣] . وهم إخوان فى الدين قد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، لا يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يسفكون دماءهم ودماء الناس بغير حق فى سبيل ثورة عارمة قد تكون ظالمة ، ثورة تحركها شهوات الانتقام ونزوات أحقاد قلوب مريضة أعماها الغرض .

والإسلام لا يرضى عن الطغيان فسواء عنده طغيان الرأسماليين أو طغيان العمال ، فهو يقدس العدل ويعطى كل ذى حق حقه ، ويضرب على أيدى العابثين بلا تفريق ، فيقدم للناس حياة أكثر خصبا وغنى ، ويشبع كل نهم الإنسان إلى العدل المطلق والحياة الحرة الكريمة للناس ، كل الناس : ﴿ اعدلوا هو أقرب

---

(١) البقرة ٢٦١ ـــ ٢٦٨ (٢) الحشر

(٣) الحجرات ١٠

للتقوى ﴾[١] . ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[٢] . ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ﴾[٣] . ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[٤] . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾[٥] .

والمال فى الإسلام عقيم لا يلد وحده ، بل لا بد من أن يتزوج العمل ليأتى بثمرة ، وله أن يشترك فى هذه الثمرة سواء أكانت حلوة أم مرة . فإذا كانت الثمرة كسبا شارك فى الكسب ، وإذا كانت خسارة تحمل نصيبه منها ، وحكمة ذلك أننا لو وضعنا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فوق سطح قطعة أرض بور مثلا ، فستظل الأرض بورا مادامت يد البشر لم تتعهدها بالإصلاح . وكذلك الحال إذا وضعناها فى مصنع أو متجر فالمال وحده عاجز عن أن يؤدى وظيفة منتجة ، بينما العمل وحده يستطيع أن يثمر فيستحق مكافأة ، يستحق أجرا . أما المال فهو لا يستحق ربا ، بل يستحق نصيبه من المكسب أو الخسارة إذا ما اشترك مع العمل فى الإنتاج .

والربا لغة الزيادة ، وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد ، أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع :

النوع الأول ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المتفقى الجنس على الآخر ، كمثقال فضة مثلا بمثقال وربع منها .

والثانى ربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضها أو قبض أحدهما عند التفرق من المجلس ، أو عند تخاير لزوم العقد فيه ولكن بشرط اتحاد العوضين علة بأن يكون

---

(١) المائدة ٨ — (٢) النساء ١٣٥

(٢) المائدة ٨ — (٤) النساء ٥٨

(٥) النحل ٩٠

كل منهما مطعوما أو نقدا ، وإن اختلف جنسا كذهب بفضة وبر بشعير .

والثالث ربا النَّساء ، وهو البيع للمطعومين أو للنقدين المتفقى الجنس أو المختلفين لأجل كشهر أو لحظة ، وإن استويا وتقايضا فى المجلس كبيع صاع بر بصاع بر أو درهم فضة بدرهم فضة ، لكن مع تأجيل أحد العوضين ولو إلى لحظة وإن تساويا وتقايضا فى المجلس .

وحرم الفلاسفة الأقدمون الربا ولكن ذلك لم يمنع تغلغله فى الحياة الاقتصادية لكل الشعوب . وكان اليهود فرسان الحلبة على الرغم من أن التوراة قد حرمت الربا ، وكما هى عادتهم فقد لعبوا بالألفاظ فأطلقوا على الربا اسم الفائدة وحسبوا أنهم بذلك قد فروا من العقاب فى الدنيا ، فما كانت الآخرة تعنيهم فى قليل أو كثير .

لا تؤدى الفائدة أى منفعة عامة ولا تحقق رخاء فى الدنيا ، بل إنها تنهش بمخالبها القاتلة أفئدة المدينين ، ومع ذلك وجدت من يدافع عنها ، فقد قال آدم سميث وريكاردو وهما من أبرز من وضعوا علم الاقتصاد : « الفائدة هى التعويض الذى يدفعه المقترض عن الربح الذى كان يمكن أن يحققه باستثماره ماله » . وهذان الكاتبان لا يفصلان بوضوح بين الفائدة والربح الفاحش لرأس المال . ولننظر ما يعنون برأس المال :

لقد استخدم آدم سميث عبارة (رأس المال العامل) وهو يعنى بها ذلك الجزء من ثروة الفرد الذى يستخدم لا للاستهلاك وإنما لمزيد من الإنتاج ليعود عليه بالمال كمكافأة أو كربح . وهو يشمل الآلات والمواد الخام والمبانى والطعام والكساء . ويمكن تفسيره بأنه بالرغم من الطعام والكساء ، وليسا برأس مال من وجهة نظر المجتمع إلا أنهما رأس مال من وجهة نظر الفرد . ما دام فى وسعه إعطاؤه سلفا للعاملين فى الإنتاج وتحقيق ربح من ذلك .

وآراء ريكاردو أيضا هي عين هذه الآراء من الوجهة العلمية .

إن تزايد المال العامل أو رأس المال كان نتيجة للبخل . وما كان البخل ليمارس لولا توقع مكافأة عن التضحية . لذلك كانت الفائدة حسب رأى هذين الكاتبين هى المكافأة أو الإغراء الذى يُدْفع عن المدخرات . وأصل الأرباح عند سميث هو أن تشغيل رأس المال فى الإنتاج يؤدى إلى قيمة زائدة للمنتج علاوة على قيمة العمل ، ولذلك ليس هناك استغلال للعمل . وقد اعتبر ريكاردو كل رأس المال عملا مختزنا ونسب كل قيمة إلى العمل . ولقد كان هذا هو الأساس الذى بنى عليه كارل ماركس نظرية استغلال العمل فى الاقتصاد الرأسمالى . ويفسر آدم سميث وريكاردو معدل الفائدة ببساطة فى تعليقهما بأنه : وقتما يمكن عمل الكثير باستخدام المال يمكن إعطاء الكثير من أجل استخدامه ﴾(١) .

وحرم الإسلام الربا ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾(١) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾(١) . ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله

(١) الإسلام والربا — تأليف أ. د. إقبال قرشى — ترجمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .
(٢) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٣) البقرة ٢٧٨
(٤) آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ .

وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولـٰئك هم المضعفون ﴾(١) .

وقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « الربا سبعون حربا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » . وقال — عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » ، « وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب » .

وخطب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصحابه قال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وإن أربى الربا عِرض الرجل المسلم . ومن نبت لحمُه من سحت فالنار أولى به » . وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقال — صلوات الله وسلامه عليه : « رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت ما هذا ؟ فقال الذي رأيت في النهر آكل الربا » .

وقال — صلى الله عليه وسلم — : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ست وثلاثين زنية » . ولعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده وقال : هم سواء .

إن الإسلام حرم الربا لأنه ابتزاز لأموال المدينين ، ولأنه لا يتفق مع فلسفة الإسلام التي تنادي بالمحبة والعدل وتحريم الظلم ، ولأن الربا يشجع على إيجاد

---

(١) الروم ١٣٩

طبقة من العاطلين الذين يعيشون على إقراض الناس فائض أموالهم أو ما ورثوه عن آبائهم ، بينا الإسلام يقدس العمل ويحترم العاملين ولا يرضى عن أن يكون فى مجتمعه مصاصو دماء ، إلى أن الدَّين همّ بالليل ومذلة بالنهار ، وما جاء الإسلام إلا ليحافظ على كرامة الإنسان ، والربا يشجع الناس على الإقراض والاقتراض ولا يرحب الإسلام بأن يزداد عدد المدينين من المسلمين لأن الدَّين يقضى على شرف الإنسان ويهدر كرامته ويريق ماء وجهه ، والإسلام يريد لأتباعه العزة والكرامة والشرف .

ولا صلة بين تحريم الربا وذم المال ، فالله تعالى قد سمى المال خيرا ، وقد قال ـــ ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وقال ـــ عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفرا » . والمال فى الإسلام خادم ولا خادم له ، فهو ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس ؛ فالمال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، أما الربا فهو مفسدة ، فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر . ولما كان الربا هو أيسر سبيل لكسب المال فهو غالبا ما يصرف فى الشهوات وتحصيل اللذات ، ومن كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويعصى الله فى طلب رضاهم فينطلق فى طريق الهلاك .

وأخذ الربا يملأ قلوب المدينين بالعداوة للمرابين والحقد والحسد ، مما يفسد العلائق الطيبة بين أفراد المجتمع الواحد ، بينا أسمى أهداف الإسلام سلامة المجتمع من الحقد والكراهية والبغضاء وسريان الحب والود بين الناس : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

والربا لا يعكر الانسجام الاجتماعى وحسب ، وهو ليس بدخل غير مكتسب فقط ، بل إنه يفضى إلى العدوان الاقتصادى بزيادة ثروة المرابى على

حساب المدين ؛ لذلك قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم »[١] . ولم يقتصر ضرر الربا على سيطرة أفراد على أفراد بل تجاوز ذلك إلى سيطرة دول دائنة على دول مدينة مما يؤدى إلى شعور بالمرارة بين المدينين ، الأمر الذى قد يفضى إلى عداوة مستترة سرعان ما تكشف عن وجهها .

والإقراض فى الإسلام معونة وليس عملية تجارية لأن الإسلام دين الأخلاق قبل كل شيء ، ولأن رسول الإسلام عليه السلام قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وإنه من مكارم الأخلاق مد يد العون إلى أخ فى البشرية فى ضيق مالى ، وإنه ليس من الأخلاق فى شيء استغلال ضيقه لتحقيق كسب دون مجهود .

ويقول ميرزا محمد حسين فى كتابه « الإسلام والاشتراكية » : « وقبل انحدار الرأسمالية وما وصلت إليه من تدهور ، كان يعتقد أن الربا هو مفتاح الرخاء الاقتصادى ، ولذا قال الجاهلون : إن الإسلام بتحريم الربا بدائى ومتخلف يمنع تابعيه من سلوك الطريق إلى الرخاء ، ونسبوا تخلف الدول الإسلامية فى ميادين الصناعة إلى هذه الثغرة فى النظرية الاجتماعية الإسلامية ، ولكن منطق الإنسان المتهافت لن يصل إلى مستوى القوانين القرآنية فى علاج المشاكل الاجتماعية الاقتصادية ، والعارفين بتعاليم القرآن الكريم حقيقة لن ينخدعوا بالثروات الطائلة والسيطرة الاقتصادية التى للغرب لأن هذا لن يخفى عن الأنظار الفقر والعوز الذى تعانيه الجماهير الضخمة هناك .

والاستعمار وتشييد الإمبراطوريات بدورها مظهر آخر للفساد والفراغ فى

---

(١) البقرة ٢٧٦

الحضارة الأوروبية ، والإسلام الذى لا يستأنس غريزة الجشع لن يقبل بأى ثمن مثل هذا الأمر الذى يسعد قلة من الناس على حساب الملايين . وقد حاول بعض الناس أن يفرق بين « الربح » و« الربا » وقالوا بأن الربح كسب مباح نظير استعمال المال وحرمان الشخص لنفسه من ذلك أمر لا مبرر له . وهذا نوع من اللجاجة . سمه كما شئت ـــ ربحا أو ربا ـــ فهو عمل ضار بالجماعة تحت أى اسم كان . وكلمة « ربا » العربية تعنى الزيادة التى تعطى عن المال المقترض ؛ وسواء كان « الربح » يعطى نظير خطر ضياع المال المقترض أو نظير حرمان صاحبه منه إلى أن يرد فهو حرام . ولن يغير هذا الاسم المقبول من طبيعة هذا العمل الذى لعنه الإسلام . ويروى فضالة عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال بأن كل دين يعطى ربحا فهو ربا (البيهقى الجزء الخامس) ، وفى هذا ما يقطع الجدل ويهدم كل حجة للإبقاء على « الربا » تحت اسم أو آخر »[١] .

وأحاديث النبى ـــ ﷺ ـــ توضح أنواع الربا ، فقد قال ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ينهى عن بيع صاعين من أنواع متفرقة من التمر بصاع من تمر جيد فى حديث عن أبى سعيد الخدرى : « كنا نرزق تمر الجمع وهو الخلط من التمر ، وكنا نبيع صاعين بصاع فقال النبى ـــ ﷺ : لا صاعين بصاع ولا درهمين بدرهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام فى بيع التمر بالتمر والشعير بالشعير والبُر بالبُر : « البر بالبر ربا إلا هاء وهاء[٢] ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » . وقد نهى ـــ عليه السلام ـــ عن بيع الرطب بالتمر وبيع الكرم بالزبيب ،

---

(١) الإسلام والاشتراكية ـــ تأليف ميرزا محمد حسين ـــ ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب .

(٢) هاء وهاء معناها خذ وهات يعنى مناولة .

ويسمى هذا البيع مزابنة ، والمزابنة أن يبيع التمر بكيل إن زاد فلى وإن نقص فعلىّ .

والتمس مالك بن أوس صرفا بمائة دينار فدعاه طلحة ابن عبيد الله فتراوضا حتى اصطرف منه ، فأخذ الذهب يقلبها فى يده ثم قال حتى يأتى خازنى من الغابة . وعمر يسمع ذلك فقال : « والله لا تفارقه حتى تأخذ منه . قال رسول الله — ﷺ : الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء ، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » .

وسبب اعتبار الذهب والبر والشعير ربا إذا أجل التسليم أن لهذه الطيبات أسعارا وقت الأخذ قد تتعرض للارتفاع أو الانخفاض وقت العطاء مما يعود بالضرر على أحد طرفى الصفقة ، وهذا يتعارض مع المبدأ الإسلامى القائل : لا ضرر ولا ضرار ، فالإسلام يحافظ على مصالح الناس ويأبى أن يفرط فيها .

وقال — ﷺ — فى بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا سواء بسواء ، والفضة بالفضة إلا سواء بسواء ، وبيعوا الذهب بالفضة كيف شئتم » . ونهى — ﷺ — أن تباع بضاعة حاضرة ببضاعة مؤخرة ، فللبضاعة الحاضرة سعر معلوم بينما البضاعة المؤخرة لا يعلم سعرها ، فقد ترتفع الأسعار أو تنخفض فيضر أحد طرفى الصفقة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل وتشفُّوا (تفضلوا) بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورِق (الفضة) بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفُّوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائبا بناجز » .

وقال — ﷺ — إن بيع الورق بالذهب دينا نسيئة ، وأنه لا بد من بيع الذهب بالورق يدا بيد . ونهى عن بيع الثمر حتى يبدو صلاحه : « لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه » .

كان الناس فى عهد رسول الله — ﷺ — يتبايعون الثمار ، فإذا جدَّ الناس (قطعوا الثمار) وحضر تقاضيهم قال المبتاع : إنه أصاب الثمر الدُّماه (فساد

الطلع) ، أصابه مراض ، أصابه قُشام (انتفاض ثمر النخل) ، عاهات يحتجون بها ، فقال رسول الله — ﷺ — لما كثرت عنده الخصومة فى ذلك : فإما لا ، فلا تبايعوا حتى يبدو صلاح الثمر » . وقال جابر بن عبد الله : « نهى النبى — ﷺ — أن تباع الثمرة حتى تُشقِّح . فقيل : وما تشقح ؟ قال : تحمارُّ وتصفارُّ ويؤكل منها .

واستعمل رسول الله — ﷺ — رجلا على خيبر فجاءه بثمر جنيب (طيب) ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أكل تمر خيبر هكذا ؟

— لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة .

كان الرجل يقصد أنه يأخذ صاعا من تمر جيد مقابل صاعين أو ثلاثة من تمر الجمع ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ، ثم ابتع بالدراهم جنيبا .

وروى أنس أن النبى — ﷺ — نهى عن بيع ثمر التمر حتى تزهو ، فقالوا لأنس :

— ما زهوها ؟

— تحمر وتصفر ، أرأيت إن منع الله الثمرة بم تستحل مال أخيك ؟!

أحل الله البيع وحرم الربا ، فلا غنى لمجتمع عن البيع والتجارة ، وقد نظم الإسلام التجارة فلم يترك للتجار الحبل على الغارب ، بل وضع من الأصول وحض على حسن المعاملة وحسن النية مما جعل المجتمع الإسلامى فى العهود التى ساد فيها الإسلام المثل الأعلى للعلاقات الطيبة فى المعاملات التجارية ؛ فقد كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام حتى قال بعضهم : « من أنفق الحرام فى الطاعة فهو كمن طهر الثوب بالبول » . وقال : « لأن أردّ درهما من شبهة

أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف » . وقال ﷺ : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » .

لما قدم النبى — ﷺ — المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة ، له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله تعالى : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولـٰئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين »(١) .

كان أهل المدينة أبخس الناس كيلا ، فلما نزلت حرمة التطفيف أحسنوه وأصبحوا إذا كالوا الناس أو وزنوهم يستوفون .

وأقبل رسول الله — ﷺ — على المهاجرين فقال :

— يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم .

وقد أمر القرآن الكريم بتأدية الأمانة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »(٢) . وقال — ﷺ — :

---

(١) المطففين ١ — ٦ (٢) النساء ٥٨

— الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشد ذلك الودائع .

وكان ابن عمر يمر بالبائع يقول :

— اتق الله وأوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون حتى إن العرق ليلجُمهم إلى أنصاف آذانهم .

ونهى الإسلام عن الغش وحرمه ، فقد قال — ﷺ : « من حمل السلاح علينا فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

ومر عليه السلام على كومة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

ونهى عن خلط اللبن بالماء : « لا تشوبوا اللبن للبيع » . وزين إظهار ما فى البضاعة من عيب : « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعا فيه عيب أن لا يبينه » . وقال : « المؤمنون بعضهم لبعض نصَحة ، وادُّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة ، متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم » .

أحل الله التجارة لتعارف القبائل والشعوب ولقضاء حاجات الناس لتستمر الحياة ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال إن ما عنده خير من اللهو والتجارة حتى لا ينغمس الناس فى طلب الماديات ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من

اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين »[١] .

كان القوم يتبايعون ويتجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله . إنهم كانوا يعيشون للدنيا والآخرة وما كانت الدنيا تطغى على الآخرة وما كانت الآخرة تطغى على الدنيا ، وإن كان العقلاء يدخرون الطيبات فى الدنيا للآخرة . وقد جعل الإسلام طلب الحلال فريضة فقال نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وقد مر رسول الله — ﷺ — بابنته الأثيرة عنده فاطمة الزهراء وهى مضطجعة متصبحة ، فحركها برجله ثم قال :

— يا بنية قومى فاشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

إن طلب كسب الرزق الحلال فى الإسلام فريضة بعد الفريضة ، فالإسلام يعمل على إيجاد المجتمع المتوازن ، المجتمع الذى يسلم وجهه لله فى الأرض بحثا عن رزقه امتثالا لأوامر الله . إنه الدين والمذهب الاقتصادى الذى يحقق الانسجام بين أطماع الفرد وسلامة الجماعة : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[٢] . « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »[٣] .

والإسلام يبارك العمل ، فرسول الله — ﷺ — يقول : ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .
ويفضل العمل عن سؤال الناس مهما كان نوع العمل : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » . ويحض على السهولة والسماحة فى الشراء والبيع : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا

---

(١) الجمعة ١٠ ، ١١ (٢) البقرة ١٦٨ (٣) الأعراف ١٥٧

اقتضى » ، ولم يكتف بأن يعلم الناس طلب الحق فى عفاف بل إنه يأمر بأن ييسر على الموسر ويتجاوز عن المعسر . قال ــ ﷺ ــ : « كان تاجر يداين الناس ، فلما رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا » .

والإسلام لا يحل لامرىء يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره ، فقد كتب رسول الله ﷺ ــ للعداء بن خالد : « هذا ما اشترى محمد رسول الله ــ ﷺ ــ من العداء بن خالد بيع المسلم المسلَّم لا داء ولا خبُثة ولا غالة » . أى أن المسلم لا يبيع من طيبات الله إلا الطيب الذى لا عيب فيه ولا سرقة ولا زنا .

وقال ــ ﷺ : « البيعان بالخيار حتى يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

إن الإسلام ينشد الطهارة فى البدن والنفس وطهارة المعاملات ، فلا غش ولا تدليس ولا تطفيف فى الميزان ، ولا إخفاء ما فى البضاعة من عيوب ، وقد حض على طلب الحلال وترك الخبائث فأصبح المسلمون يتنزهون من الشبهات حتى إن رسول الله ــ ﷺ ــ مر بتمرة مسقَّطة فقال : « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وكانت صفة المؤمنين البارزة التحرز والخوف من المحرمات ، وقد قال رسول الله ــ ﷺ : « ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن حرام أم من حلال » .

ويكره الإسلام الحلف فى البيع ، فقد روَّج رجل سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »(١) .

---

(١) آل عمران ٧٧

والإسلام يكره أن يخرج المشترون للقاء قوافل التجارة قبل أن تصل الطيبات إلى الأسواق ، لأن ذلك لا يتيح للجميع تكافؤ الفرص ، فالأقوياء قد يحصلون على حاجاتهم بينما الضعفاء ينتظرون فى الأسواق ورود الطيبات . وقد كان الناس على عهد رسول الله — ﷺ — يشترون الطعام من الركبان فكان — عليه السلام — يبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام ، فتتاح للناس جميعا فرصة الشراء .

والإسلام يحرم الاحتكار ويعده من الكبائر ، وقد قال — ﷺ — : « من احتكر طعاما فهو خاطئ لله » ، وقال — عليه السلام : « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه . وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » .

وقال — ﷺ — : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » . وقال — ﷺ — : « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح » .

التطفيف حرام ، والغش فى البيع والشراء ، والاحتكار ؛ وإن التاجر الأمين مع النبيين . قال — ﷺ — : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » . وقال : « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

وقال — ﷺ — لأبى ذر :

— ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

— خابوا وخسروا ! من هم يا رسول الله ؟

— المُسبل إزاره ، والمنان عطاءه ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب .

أرهف الإسلام حس المسلمين فكانوا يتبعون أوامر الله ويتجنبون نواهيه ،

وكانوا ينفذون ما عهدوا عليه رسول الله — ﷺ . أتى جرير بن عبد الله البجلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— أبايعك على الإسلام .

فشرط — ﷺ — عليه :

— والنصح لكل مسلم .

فبايعه على ذلك . وحدث أن أمر جرير مولاه أن يشترى له فرسا فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس :

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟

— ذلك إليك يا أبا عبد الله .

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بستمائة درهم ؟

ثم لم يزل يزيده مائة مائة وصاحبه يرضى وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك فقال :

— إنى بايعت رسول الله — ﷺ — على النصح لكل مسلم .

ونهى الإسلام أن يبيع الرجل على بيع أخيه ، أو أن يزيد فى الثمن بلا رغبة فى الشراء بل ليغر غيره ، أو أن يبيع حاضر الباد ، فقد نهى — ﷺ — أن يبيع حاضر لباد وقال : لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا تناجشوا[١] .

ولا بأس فى الإسلام ببيع المزايدة فقد كان الناس لا يرون بأسا ببيع المغانم فيمن يزيد .

ولا يقبل فى الإسلام اشتراط شروط لا تحل : جاءت بريرة إلى عائشة

---

(١) المناجشة ، من النجش ، وهو أن يزيد فى الثمن بلا رغبة بل يغر غيره .

أم المؤمنين فقالت :

— كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعينينى .

— إن أحب أهلك أعُدَّها لهم ، ويكون ولاؤك لى فعلت .

فذهبت بريرة إلى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله — ﷺ — جالس عند عائشة فقالت :

— إنى قد عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم .

فسمع النبى — ﷺ — فأخبرت عائشة النبى — عليه السلام — فقال :

— خذيها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق .

ففعلت عائشة ، ثم قام رسول الله — ﷺ — فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد . ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله أحق وشروط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق .

وقضى النبى — ﷺ — بالشفعة فى كل مال لم يُقسم . فإذا وقعت الحدود وصُرِّفت الطرق فلا شفعة ، والشفعة فى بيع الأرض والدور والعروض . وصرح بالشراء والبيع مع المشركين ، وبجلود الميتة قبل أن تدبغ ، فقد مر رسول الله — ﷺ — بشاة ميتة فقال :

— هلا استمتعتم باهابها ؟

— إنها ميتة .

— إنما حُرم أكلها .

وحرم الإسلام بيع الحر وجعله إثما كبيرا ، قال رسول الله — ﷺ — :

— قال الله ثلاثة أنا خَصمُهُم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل

باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا ، فاستوفى منه ولم يعطه أجره .

يأمر الإسلام أن يعطى أجر الأجير قبل أن يجف عرقه ، ليسعد بالأجر ويستشعر أنه مكافأة عن العمل والجهد والعرق . وكان صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ تجارا وزراعا وصناعا ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب كانوا يشتغلون بالتجارة ، وكان الزبير ابن العوام وسلمان الفارسي وكثير من الأنصار يشتغلون بالزراعة ، وكان خباب ابن الأرت حدادا ، وكان كثير من الرجال والنساء يشتغلون بالنجارة ، فقد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى امرأة من الأنصار أن مرى غلامك النجار يعمل لى أعوادا أجلس عليهن إذا كلمت الناس ، فعمل له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبى ـ ﷺ ـ على المنبر الذى صنع .

« لا ينظر الإسلام كالاشتراكية بعين الرضا إلى جمع الثروات دون مراعاة لصالح المجتمع لما لذلك من نتائج مزعجة تلحق بالجماعة ، ولكنه يتخذ لنفسه أسلوبا آخر ، ونظامه هو التدرج الاقتصادى الاجتماعى الذى لا يتجاهل خير المجموع .

قال تعالى : ﴿ والله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾[١] .

وهو يبيح للإنسان كسب المال وتملكه ، ولا يعتبر المشاريع الاقتصادية الفردية حراما ينبغى أن يتجنبه الناس ولكنها إذا ما اتخذت دورا عدوانيا يلحق الضرر بالجماعة أو يحرم أبناءها من وسيلة كسب العيش فإنه لا يوافق عليها ، وقد سد الإسلام الطريق فى وجه كل ما قد تتجه إليه التجارات والأعمال من تطورات ضارة .

---

(١) سورة الرعد ٢٦ .

وقد سمح الإسلام بالملكية الفردية من أجل تشجيع الابتكار الفردى وإنقاذ الفرد من أن يصبح مجرد آلة مسيرة، كما أعطاه الحق فى أن يتسع نشاطه المالى كما يشاء ما دام غير متجاوز الحدود التى تخل بالتوازن الاجتماعى . ومن أجل ضمان نمو التجارة والصناعة نموا صحيحا سليما وضع الإسلام قيودا لحرية النشاط الشخصى ، ذلك لما بين الملكية الخاصة والمصلحة العامة من علاقة حيوية تحتم ضرورة الاحتفاظ بالانسجام فيما بينهما »[١] .

« لن تستطيع الدولة المسلمة تحقيق الرسالة الإلـٰهية التى ألقيت على عاتقها إلا إذا جرد أفرادها أنفسهم من الطمع والبخل وخلصوا عقولهم من الرغبة فى العدوان على بعضهم البعض . والآيات القرآنية تسد الطريق على هؤلاء الذين يكنزون المال ويستغلون الظروف لتحقيق الكسب وتضخيم الثروات بحيث يصبح خطرا على الجماعة ، كما نرى أمام أعيننا فى ظل الرأسمالية الفاسدة ، هذا النظام الذى أفسد نشاط الدولة لتحقيق مصالح الناس بشعاره المزيف « حرية العمل وحرية الانتقال » ، والذى يغرى الفرد بالتنافس لتحقيق الربح ولو أصبح جيرانه شحاذين .

ولقد لعن الإسلام كل نظام يقوم على المبدأ الهدام القائل « كل فرد لنفسه وليذهب الآخرون إلى الجحيم » . وحرم أساليب التنافس الخسيس الذى يشبه تنافس الكلاب على أكل بعضها البعض ، والإسلام لا يسمح بمثل هذا التنافس الاجتماعى الهدام لأن وجود فرد مفرط الغنى يعنى عبودية اقتصادية للكثيرين ، والكسب المفرط الزائد على حاجة الأفراد مزرعة خصبة ينمو فيها الصدام الطبقى . ولن تتحقق أخوة اجتماعية دائبة إذا فصلت بين الطبقات هوات

---

(١) الاشتراكية والإسلام ـــ ميرزا محمد حسين .

اقتصادية عميقة ، بل سيكون هناك طائفة من السادة فى ناحية وطائفة من المستعبدين فى ناحية أخرى ، وحرصا من الإسلام على القضاء على هذه التفرقة التى تفضى إلى تحكم طبقة فى أخرى ، نهى عن الربح الجشع والتهوس فى طلب الثروة ، والآية الكريمة : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ ـ سورة البقرة ـ مليئة بالدلالة فهى تؤيد أن ما خلقه الله من خير ملك للجماعة الإنسانية فى عمومها ، وليس لإنسان كائنا من كان أن يحتفظ لنفسه بنصيب الأسد من هذا الخير المشترك »(١) .

إن الثروة الزائدة أو « العفو » لا يصح أن تبقى فى يد مالكها بل عليه أن يتخلى عنها بطريقة تحقق الخير العام : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾(٢) . ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(٣) .

والإسلام يعمل على إعادة توزيع الثروة تحقيقا للخير العام وذلك بفرض الزكاة على القادرين ، ثم حض الأغنياء على إنفاق فضول أموالهم لما فيه مصلحة الجميع : ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾(٤) .

ويروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

وقال د. د. سانتيلانا فى كتابه تراث الإسلام : « لكل إنسان الحق فى ملكية أى

---

(١) المصدر السابق . (٢) البقرة ٢١٩

(٣) الأعراف ١٩٩ (٤) البينة ٥

شىء لأن خيرات الدنيا قد خلقت من أجل نفع الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى بإباحة الملكية قد وضع حدودا تبين لكل فرد نصيبه الذى منحه إياه من هذه الثروة المشتركة ، فوضع بذلك أساسا لتأمين النظام الاجتماعى . ومن الخطأ أن يظن الفرد أنه لا حدود لحق الملكية ، لأن تقرير هذا الحق والغاية التى من أجلها تقرر أن يكون له حدود يقف عندها . وقد منح الله خيرات الأرض للإنسان ليتمكن من الحياة ، أى ليستعملها استعمالا نافعا لا ليبعثرها هنا وهناك دون هدف خضوعا لنزوات تافهة ، ويعتبر القرآن والحديث الشريف استهلاك المال فى غير حاجة حقيقية استعمالا سيئا غير مباح . والتبذير نوع من الهوس فى نظر الإسلام الذى يصر على التوسط فى إنفاق المال لأن التوسط أمر يتفق مع طبيعة الأشياء ، ومع الغرض الذى من أجله أسبغ الله على الإنسان نعمه » .

والزكاة نقيض الربا ، فالربا جشع وطمع واستغلال وضرر بالخير العام ، بينا الزكاة سماحة وجود وإنفاق فى سبيل الخير العام استجابة لأمر الله صاحب المال : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات »[١] .

جعل الله الزكاة أساسا للدين وإحدى مبانى الإسلام وقرنها بالصلاة : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾[٢] . ﴿ وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[٣] ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾[٤] ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ﴾[٥] ، ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[٦] .

---

(١) البقرة ٢٧٦ (٢) البقرة ٤٣
(٣) البقرة ٨٣ (٤) البقرة ١١٠
(٥) البقرة ٢٧٧ (٦) النساء ١٦٢

وقال ـــ ﷺ : « بنى الإسلام على خمس » : شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وشدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . ومعنى الإنفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة .

وقال أبو ذر : « انتهيت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة . فقلت : ومن هم ؟ قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم . ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت إليه أولاها حتى يقضى بين الناس .

ولا تجب[١] الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبى والمجنون . هذا شرط من عليه ، وأما المال فشروطه خمسة :

١ ـــ أن يكون نعما فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم أما الخيل والبغال والحمير والمتوالد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها ، وقد وضعت الزكاة عن الخيل لأنها عدة القتال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[٢] .

٢ ـــ سائمة ، فلا زكاة فى معلوفة ، وإذا أسيمت[٣] فى وقت وعلفت فى وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها .

٣ ـــ حال عليها الحول ، قال ـــ ﷺ : « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه

---

(١) كتاب أسرار الزكاة ، إحياء علوم الدين للغزالى .

(٢) الأنفال ٦٠

(٣) السوم : الرعى بالنفس . أسيمت : رعت بنفسها .

الحول ، ويستثنى من هذا نتاج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لأول الأصول ، ومهما باع المال فى أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول » .

٤ — كمال الملك والتصرف : فتجب فى الماشية المرهونة لأن صاحبها هو الذى حجر على نفسه فى ملكيته ، ولا تجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ، ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به ، إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة .

٥ — كمال النصاب : أما الإبل فلا شىء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن — والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية — أو ثنية من المعز — وهى التى تكون فى السنة الثانية — وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض — وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر — وهو الذى فى السنة الثانية — يؤخذ وإن كان قادرا على شرائها . وفى ست وثلاثين : ابنة لبون ، ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة — وهى التى فى السنة الرابعة ، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة — وهى التى فى السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وستين ففيها بنتا لبون — فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان ، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فلا شىء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع — وهو الذى فى السنة الثانية ، ثم فى أربعين مسنة — وهى التى فى السنة الثالثة ، ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفى كل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لا شىء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان ، إلى مائتى شاة

وواحدة ففيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة .

وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد فى النصاب، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة، وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم، وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة، ولا حكم للخلطة مع الذمى والمكاتب .

ويجب العشر فى كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة مَنْ، ولا شيء فيما دونها ولا فى الفواكه والقطن، ولكن فى الحبوب التى تقتات وفى التمر والزبيب، ويعتبر أن تكون ثمانمائة مَنّ تمرا أو زبيبا لا رطبا وعنبا، ويخرج ذلك بعد التجفيف .

ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر فى خلطة الشيوع، كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة مَنّ من زبيب، فيجب على جميعهم ثمانون منًّا من زبيب بقدر حصصهم. ولا يعتبر خلطة الجوار فيه، ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه .

هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة، فإن كان يسقى بنضح (جمل السقيا) أو دالية (دلو) فيجب نصف العشر، ذلك لأن الإسلام لا يحرم العمل من نصيبه، فإن اجتمع السقاية بالمطر أو القنوات والسقاية بالدلاء أو جمال السقى فالأغلب يعتبر .

أما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة فى قطعها قبل تمام الإدراك، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح فى الثمار وأن يشتد الحب، ووقت الأداء بعد الجفاف .

وفرضت الزكاة على النقدين ، فإذا تم الحول على وزن مائتى درهم نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، ولو زاد فبحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة فى التبر وفى الحلى المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تجب فى الحلى المباح ، وتجب فى الدين الذى هو على ملىء ولكن تجب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

وفرضت الزكاة على التجارة ، وهى كزكاة النقدين وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقدين الذى بها اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ، فإن كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء ، وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم ، فإن كان ما به الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقديم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئا ، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة ، والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات .

وتجب الزكاة فى الركاز والمعادن ؛ والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك . فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر ، والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضا ، لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة ، واعتباره أيضا ليس ببعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ، لذلك يخصص على الصحيح بالنقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب ، وفى الحول قولان ، وفى قول يجب الخمس ، فعلى هذا لا يعتبر ، وفى النصاب قولان ، والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب ، وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ، ويعتبر النصاب كالمعشرات . والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات ، فإنها ظنون قريبة من التعارض ، وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

وصدقة الفطر واجبة على لسان رسول الله ـــ ﷺ : « على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات » ، بصاع رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو منوان وثلثا منّ يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ، ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق .

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته ، أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد ، قال ـــ ﷺ : « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون » . وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها ، وللزوج الإخراج عنها دون إذنها ، وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم .

ولأداء الزكاة شروط باطنة وظاهرة ، فيجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

١ ـــ النية ، وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ، ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز ، لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبى ، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ، ولكن فى ظاهر حكم الدنيا أعنى قطع المطالبة عنه ، أما فى الآخرة فلا ، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة .

وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه ، لأن توكيله بالنية نية .

٢ ـــ البدار عقيب الحول ، وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر ، ويدخل يوم وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان ، ووقت تعجيلها وقت رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق ، وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه .

وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول ، ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات فالمدفوع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن ، إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع ، فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العافية .

٣ ـــ ألا يخرج بدلا باعتبار القيمة ، بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزىء ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود ، بل

واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه ، وذلك كرمي الجمرات مثلا إذ لا حظ للجمرة فى وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر ، وأكثر أعمال الحج كذلك ، ولذلك قال ـ ﷺ ـ فى إحرامه : لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا . تنبيها على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله ، كما أمر من غير استئناس العقل بما يميل إليه ويحث عليه .

القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد ، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب ، فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته ، ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى للوجوب وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس .

والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا ، وهو حظ العباد والامتحان المكلف بالاستعباد . فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق ، فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ، ولا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم ؛ والزكاة من هذا القبيل . ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام ، وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبادئ الإسلام . ولا شك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ، ثم

توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى ، والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير ولكنه قادح فى التعبد ، ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أن الشرع أوجب فى خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم ، وإن قدر أن ذلك لقلة النقد فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهما فى الجبران مع الشاتين ، فلمَ لم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولِمَ قدر بعشرين درهما وشاتين ، وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها ؟ فهذا وأمثاله من التخصيصات تدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ، ولكن جمع بين المعنيين ، والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه .

الرابع : ألا ينقل الصدقة إلى بلد آخر ، فإن أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها وفى النقل تخييب للظنون ، فإن فعل ذلك أجزأه فى قول ، ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى ؛ فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة ، ثم لا بأس أن يصرف على الغرباء فى تلك البلدة .

الخامس : أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب ، وعليه يدل ظاهر قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾[1] . فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك فى التمليك ، والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر ، وقد عدم من الثمانية صنفان فى أغلب البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ، ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف :

---

(١) التوبة ٦٠ .

الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون — أعنى أبناء السبيل ، وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون ، فإن وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسما ، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متقاربة ، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد ، وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان ، فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد ثَمّ أو لم يجب إلا صاع للفطرة ، ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا ، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد ، فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه ، فإن ذلك لا بد منه .

ولبيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف :

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها وجه الامتحان فيها وأنها لِمَ جعلت من مبادئ الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاثة معان : الأول أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقته المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(١) وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل ، والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا البذل ، ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله ، فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : مثله ، وقال لأبى بكر رضى الله عنه : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله ورسوله . فقال ﷺ : بينكما ما بين كلمتيكما ، فالصديق وفىَّ بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده ، وهو الله ورسوله .

القسم الثانى : درجتهم دون درجة هذا ، وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر ، مهما ظهر وجودها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد . قال الشعبى بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾(٢) . واستدلوا بقوله عز وجل : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٣) . وبقوله تعالى : ﴿ أنفقوا مما رزقناكم ﴾(٤) . وزعموا أن

---

(١) التوبة ١١١ (٢) البقرة ١٧٧

(٣) البقرة ٣ المنافقون ١٠

ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة ، والذى يصح فى الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية ، إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا بتسليم ما يزيل الحاجة قرضا ، ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله فى الحال ولا يجوز له الاقتراض ، أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف . والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث : الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة ؛ قال تعالى : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾[1] . يحفكم أى يستقصى عليكم ، فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله ، فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال .

المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات ، قال ـ ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولـٰئك هم المفلحون ﴾[1] . وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا ، فالزكاة بهذا المعنى طهرة ، أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى .

---

(١) محمد ٣٧ (٢) الحشر ٩

المعنى الثالث : شكر النعمة فإن لله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه ، بربع العشر أو العشر من ماله .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأداء ، ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلما بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم ، وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته ، وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان — ﷺ — أجود الخلق وكان فى رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا ، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن ، وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول ، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وأفضل أيام رمضان العشر الأواخر ، وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، قال — ﷺ — : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير معسر . وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ، وقد روى أيضا مسندا .

وقال — ﷺ — : « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا ، فإن أظهره

نقل من السر وكتب فى العلانية ، فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء» وفى الحديث المشهور : «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه ، وفى الخبر : «صدقة السر تطفئ غضب الرب» . وقال تعالى : ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾(١) . وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، فقد قال ـ ﷺ : «لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان» . والمتحدث بصدقته يطلب السمعة ، والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء ، والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ، وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى ، فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى ، وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى ، وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه . كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة ، ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ فى معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء .

ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله ، لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ، وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ، ويحرس سره من داعية الرياء . فقد قال الله عز وجل : «إن تبدوا الصدقات فنعما

---

(١) البقرة ٢٧١

هى »[١] . وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس ، فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الإظهار ، بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان . وهذا لأن فى الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج . فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره ، وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور ، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها ، وبمثل هذا المعنى قال ـ ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾[٢] . ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب ، فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان فى بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : ألا يفسد صدقته بالمن والأذى . قال الله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾[٣] . واختلفوا فى حقيقة المن والأذى فقيل : المن أن يذكرها ، والأذى أن يظهرها ، وقال سفيان : من منّ فسدت صدقته ، فقيل له : كيف المن ؟ قال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر ، وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة ، وقد قال ـ ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » .

---

(١) البقرة ٢٧١ (٢) الرعد ٢٢

(٣) البقرة ٢٦٤

وعندى أن المنّ له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح ، فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه . وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به ؛ فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ـــ ﷺ : « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل » . فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه ، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه متكفل برزقه ، أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه ، فهو ساع فى حق نفسه ، فلم يمن به على غيره ؟! ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا فى نفسه ، إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى ، أو تطهير النفسه عن رذيلة البخل ، أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد ، وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، مهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن ، وهو التحدث به وإظهاره ، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ، فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه .

أما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك السر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه ، فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة ، والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشأ

الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حمق ، لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكراهية لا وجه لها . وأما الثانى فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام ، ولذلك قال ـ ﷺ : « هم الأخسرون ورب الكعبة . فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » . ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ، إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة . وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه . فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتقبيضه الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه ، وتبدل بالاستبشار والثناء والقبول والمنة .

فهذا منشأ المن والأذى ، فإن قلت فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوا له عليه مثلا ، هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة ، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

فإن قلت فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا . أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم

الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول ، وأما الظاهر فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة ، فإن الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق .

ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية رده ، وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به . ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله . وهذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة . ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاة . وثبت ذلك بقوله — ﷺ : « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » . وهذا كقوله — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » . وكقوله عز وجل : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى »(١) .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية ، فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال . قال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾(٢) . ويقال إن الطاعة كلما استصغرت

---

(١) البقرة ٢٦٤ التوبة ٢٥

عظمت عند الله عز وجل ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره ، وتعجيله ، وستره .

وليس الاستعظام هو المن والأذى فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى ، بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير ، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا فى فهم الوجوب ، فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله ، فلم يستعظم فى حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ، وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟! وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل ، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال عز وجل : فيحفكم تبخلوا .

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع ، وفى حديث إبان عن أنس بن مالك : « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » . وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره . ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل . وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من

يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذى يأكله قضاء وطر فى الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾(١) ، أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض ، فلا تؤثروا به ربكم .

وفى الخبر : « سبق درهم مائة ألف درهم » . وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشىء مما يحبه ، وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون . فقال تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار »(٢) .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ، ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن فى عمومهم خصوص صفات ، فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ، قال ـــ ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » . وهذا لأن التقى يستعين به على على التقوى فتكون شريكا له فى طاعته بإعانتك إياه . وقال ـــ ﷺ : ﴿ أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ﴾ . وفى لفظ آخر : « أضف إلى طعامك من تحبه فى الله تعالى » . وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : « لو عممت بمعروفك جميع الفقراء

---

(١) البقرة ٢٦٧ (٢) النحل ٦٢

فقال : « لا ، هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلىّ من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا » . فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال : « هذا ولى من أولياء الله تعالى » وقال : « ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا » . ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : « اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت ، فإن التجارة لا تضر مثلك » . وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة ، فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له : « لو عممت » ، فقال : « إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم ، فتفريغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطته ، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه ، وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ لا تجعل بينك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما ، ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ، ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل ، إذا سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله ، فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه ، والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها

ومسخر القدر للانتهاض بمقتضى البواعث ، فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب .

وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه ، وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع ، وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه ـــ ﷺ ـــ بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول : « احفظ ما يقول » . فلما أخذ قال : « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يضيع من شكره » ، ثم قال : « اللهم إنك لم تنس فلانا ـــ يعنى نفسه ـــ فاجعل فلانا لا ينساك » . يعنى بفلان نفسه ، فأخبر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بذلك فسر ، وقال ـــ ﷺ ـــ : « علمت أنه يقول ذلك » . فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده .

وقال ـــ ﷺ ـــ لرجل : « تب » . فقال : « أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد » . فقال ـــ ﷺ ـــ : « عرف الحق لأهله » ، ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه : « قومى فقبلى رأس رسول الله ـــ ﷺ ـــ » . فقالت : « لا والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله » . فقال ـــ ﷺ ـــ : « دعها يا أبا بكر » ، وفى لفظ آخر أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه : « بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » . فلم ينكر رسول الله ـــ ﷺ ـــ عليها ذلك ، مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين ، قال الله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه

إذا هم يستبشرون »(١) . ومن لم يصفُ باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشر الخفى سره ، فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستقرا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو أن يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، فهو يتعيش فى جلباب التجمل . قال الله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا »(٢) أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم ، أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين فى كل محلـه ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : « الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله »(٣) ، أى حبسوا فى طريق الآخرة بعلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب : « لا يستطيعون ضربا فى الأرض »(٤) لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف ، فبهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، وكان — ﷺ — يعطى العطاء على مقدار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : « كثرة العيال وقلة المال » .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، وفى صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال على رضى الله عنه :

---

(١) الزمر ٤٥ (٢) البقرة ٢٧٣
(٣) البقرة ٢٧٣ (٤) البقرة ٢٧٣

«لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلىّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلىّ من أن أعتق رقبة» .

والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ، فليراع هذه الدقائق فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفى كل صفة درجات فينبغى أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ، ومهما اجتهد فى ذلك وأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإنّ أحدَ أجريه فى الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل ، وتأكيد حب الله عز وجل فى قلبه واجتهاده فى طاعته ، وهذه الصفات هى التى تقوى فى قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثانى ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته ، فإن قلوب الأبرار لها آثار فى الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران ، وإن أخطأ حصل الأول دون الثانى ، فبهذا يضاعف أجر المصيب فى الاجتهاد هٰهنا وفى سائر المواضع والله أعلم .

وقال الغزالى فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضته : اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمى ولا مطلبى ، اتصف صفة الأصناف الثمانية[1] المذكورين فى كتاب الله عز وجل ، ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمى ولا إلى مطلبى . أما الصبى والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما ، فلتذكر صفات الأصناف الثمانية :

الصنف الأول : الفقراء . والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ،

---

(١) «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل» .

وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سروال ولم تكن قيمة القميص بحيث تفى بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه فى المال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه ، فلا ينبغي أن يشترط فى الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معتادا للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر ، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشترى له آلة ، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبدا يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب ، لأن الكسب أولى من ذلك . قال ﷺ : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وأراد به السعى فى الاكتساب . وقال عمر رضى الله عنه : « كسب فى شبهة خير من مسألة » . وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب ، فليس بفقير .

الصنف الثانى : المساكين . والمسكين هو الذى لا يفي دخله بخرجه ، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين ، وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غنى . والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت أعنى ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة ، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض ، التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة ، أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع فى الآخرة ولا يجرى إلا مجرى التفرح والاستئناس ، فهذا يباع فى الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة ، وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم

والمدرس بأجرة فهذه آلته فلا تباع فى الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة . وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخار كتب طب ليعالج بها نفسه ، أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به ، فإن كان فى البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه ، وإن لم يكن فهو محتاج إليه ، ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة ، فينبغى أن يضبط مدة الحاجة ، والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه فى السنة فهو مستغنى عنه ، فإن من فضل من قوت يومه شىء لزمته الفطرة ، فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغى أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف فى الشتاء ، والكتب بالثياب والأثاث أشبه ، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما ، فإن قال : إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه ، وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة ، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيط ، وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ فى كل واحدة فائدة ليست فى الأخرى ، وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له فى فن الفقه ، وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره ، فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن ، إذ يتعدى مثل هذا النظر فى أثاث البيت فى مقدارها وعددها ونوعها ، وفى ثياب البدن وفى الدار وسعتها وضيقها ، وليس لهذه الأمور حدود محدودة ، ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب فى التحديدات بما يراه ويقتحم به فيه خطر الشبهات ، والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقاربة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم .

الصنف الثالث : العاملون . وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى

الخليفة والقاضي ، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال .
ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل ، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف ، وإن نقص كمل من مال المصالح .

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم على الإسلام . وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون فى قومهم ، وفى إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس : المكاتبون . فيدفع إلى السيد سهم المكاتب ، وإن دفع إلى المكاتب جاز ؛ ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .

الصنف السادس : الغارمون . والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض فى معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة .

الصنف السابع : الغزاة . الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء ، إعانة لهم على الغزو .

الصنف الثامن : ابن السبيل . وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها ، فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته . فإن قلت فيم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا أما الفقر والمسكنة فيقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا بحلف ، بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه ، وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز ، فإن لم يف به استرد ، أما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة ، فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

وتكلم الغزالى عن وظائف القابض وهى خمس :

١ — أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل

همومه هما واحدا ، فقد تعبد لله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١) .

٢ — أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله سبحانه وتعالى ، فقد قال — ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

٣ — أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن من حل تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال .

٤ — أن يتوق مواقع الريب والاشتباه فى مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل ، وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به ، وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده ، وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو وخاصة من خيل وسلاح ونفقة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكنه أن يبدله بما يكفى ويفضل بعض قيمته وكل ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق ، وطرف آخر مقابل

---

(١) الذاريات ٥٦

يتحقق معه أنه غير مستحق ، وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا ، وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه . وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت فى الشرع ، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة ، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ادخر لعياله قوت سنة ، فهذا أقرب ما يحد به حد الفقير والمسكين ، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى ، ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة ، فمن مبالغ فى التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته ، وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية أنه — صلى الله عليه وسلم — نهى عن السؤال مع الغنى ، فسئل من غناه فقال — صلى الله عليه وسلم — : « غذاؤه وعشاؤه » .

وقال آخرون يأخذ إلى حد الغنى وحد الغنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا : له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود من أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش . فسئل : وما غناه ؟ قال : خمسون درهما أو قيمتها من الذهب . وقيل راوية ليس بقوى . وقال قوم : أربعون . ولما رواه عطاء بن يسار منقطعا أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال » . وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره ، أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا أعطيتم فأغنوا » . حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ

بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . قال — صلى الله عليه وسلم — : « اجعله فى قرابتك فهو خير لك » . فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها . فهذا ما حكى فيه .

فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة ، فما وراءه فيه خطر ، وفيما دونه فيه تضييق ، وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له ، ثم يقال للورع : استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، كما قاله — صلى الله عليه وسلم — إذ الإثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذ فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر ، فإذا الفتواهم قيود ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات ، والتوقى من الشبهات من شيم قوى الدين وعادات سالكى طريق الآخرة .

الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه ، فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن ، فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم .

وقال الغزالى فى بيان فضيلة صدقة التطوع وآداب أخذها وإعطائها : (من الأخبار) قوله — صلى الله عليه وسلم — : « تصدقوا ولو بتمرة ، فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة

كما يطفئ الماء النار » . وقال — ﷺ — : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة » . وقال — ﷺ — : « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فسيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد » . وقال — ﷺ — لأبى الدرداء : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » . وقال — ﷺ — : « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » . وقال — ﷺ — : « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » . وقال — ﷺ — : « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » . وقال — ﷺ — : « صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل » وقال — ﷺ — : « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين ، فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه .

وسئل رسول الله — ﷺ — : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » . وقد قال — ﷺ — يوما لأصحابه : « تصدقوا » . فقال رجل : « إن عندى دينارا » . قال : « أنفقه على نفسك » . فقال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على زوجتك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على خادمك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنت أبصر به » .

وقال — ﷺ — : « لا تحل الصدقة لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » . وقال : « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » . وقال — ﷺ — : « لو صدق السائل ما أفلح من رده » . وقال عيسى عليه السلام : « من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » . وكان نبينا — ﷺ — لا يكل

خصلتين إلى غيره : كان يضع طهوره بالليل ويخمره ، وكان يناول المسكين بيده ، وقال ـــ ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين المتعفف . اقرءوا إن شئتم : « لا يسألون الناس إلحافا » . وقال ـــ ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة » .

الإيثار) : قال عروة بن الزبير : « لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها لمرقع » . وقال مجاهد : قوله عز وجل : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »(١) . فقال : وهم يشتهونه . وكان عمر يقول : « اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجات منا » . وقال عمر ابن عبد العزيز : « الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه » . وقال ابن مسعود : « إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط أعمله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة » . وقال لقمان لابنه : « إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ : « ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة » . وقال عبد العزيز بن أبى رواد : « كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب » . وقال عمر بن الخطاب : « إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة : أنا أفضلكن » .

وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول : « سمعت الله يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . والله يعلم أنى أحب السكر » . وقال النخعى : « إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب » . وقال عبيد الله ابن عمير :

---

(١) الإنسان ٨

« يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ، ومن كسا لله عز وجل كساه الله » . وقال الحسن : « لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقراء فيكم ، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض » . وقال الشعبى : « من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه » وقال مالك : « لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد ، لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، لم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص » . ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال النخاس : « أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين . قال : لا . قال : فاذهب فإن الله رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة » .

وقال الغزالى فى بيان إخفاء الصدقة وإظهارها : قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك ، فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ، ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان :

الأول : أنه أبقى للستر على الآخذ ، فإن أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة ، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

الثانى : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ، ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو ينسبونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السختيانى : « إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى

حسدا » . وقال بعض الزهاد : « ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخوانى يقولون : من أين له هذا ؟ » . وعن إبراهيم التيمى أنه رؤى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه : « من أين لك هذا ؟ فقال : كسانيه أخى خيثمة ، ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته » .

الثالث : إعانة المعطى على أسرار العمل ، فإنه فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر ، والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى ، ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرده إليه ، ودفع إليه آخر شيئا فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل بالأدب فى خفاء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه » . وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئا فى الملأ فرده ، فقال له : « لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : « إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ، ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك » . وقبل بعض العارفين فى السر شيئا كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك فقال : « عصيت الله بالجهر فلم أك عونا لك على المعصية ، وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك » . وقال الثورى : « لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته » .

الرابع : أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : « إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله ، فما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله » .

الخامس : الاحتراز عن شبهة الشركة . قال ـــ ﷺ : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورِقا وبأن يكون ورقا أو ذهبا لا يخرج عن كونه هدية . وقال ـــ ﷺ : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورِقا أو يطعمه خبزا » . فجعل الورق

(الفضة) هدية بانفراده ، فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث ففيه معان أربعة :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس المال والمراءاة .

الثانى : إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : « أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذا ، فإنك لا تخلو عن أحد رجلين : رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك ، فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد فى قلبه بإظهارك الصدق ، فذلك الذى يريده أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه » .

الثالث : هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحدة ، فاختلاف الحال شرك فى التوحيد ، قال بعضهم : « كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية ، والالتفات للخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى أن يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد » .

حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين ، فشق على الآخرين ، فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : « لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد » ، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد ، فإنه رد الدجاجة فسألهم فقالوا : « فعلنا ما أمرنا به الشيخ » . فقال الشيخ للمريد : « مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ » . فقال ذلك المريد : « لم أقدر على مكان لا يرانى فيه أحد ، فإن الله يرانى فى كل موضع » . فقال الشيخ : « لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل » .

الرابع : أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى : « وأما بنعمة ربك

فحدث »[١] . والكتمان كفران النعمة . وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل . فقال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله »[٢] . وقال ـ ﷺ : « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى نعمته عليه » . وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا فى السر فرفع به يده وقال : « هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر فى أمور الآخرة أفضل » ، ولذلك قال بعضهم : « إذا أعطيت فى الملأ فخذ ثم اردد فى السر » . والشكر فيه محثوث عليه . قال ـ ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل » . والشكر قائم مقام المكافأة ، حتى قال ـ ﷺ : « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فأثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » . ولما قال المهاجرون فى الشكر : « يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله » . فقال ـ ﷺ : « كل ما شكرتم لهم وأثنيتم عليهم به فهو مكافأة » .

فالآن إذا عرفت هذه المعانى ، فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسألة ، بل هو إختلاف حال ، فكشف الغطاء فى هذا أنا لا نحكم حكما باتا بأن الإخفاء أفضل فى كل حال أو الإظهار أفضل ، بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان . والمكر والخداع أغلب فى معانى الإخفاء منه فى الإظهار ، مع أن له دخلا فى كل واحد منهما ، فأما مدخل الخداع فى الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من حفظ الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ، ونظر الخلق إليه بعين

---

(١) الضحى ١١ . (٢) النساء ٣٧

الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن . فهذا هو الداء الدفين ويستكن فى النفس ، والشيطان بواسطته يظهر معانى الخير حتى يتعلل بالمعانى الخمسة التى ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن ، أو يتقى انتهاك الستر ، أو إعانة المعطى على الأسرار ، أو صيانة العلم عن الابتذال ، فكل ذلك يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو ، والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها لعرض زيد على الخصوص ، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ .

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله ، وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده ، وهذا داء دفين فى الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له : الشكر من السنة ، والإخفاء من الرياء . ويورد عليه المعانى التى ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ، ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهى الخير إلى المعطى ولا إلى من يرغب فى عطائه ، وبين يدى جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون فى إخفائها ، وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة فى الشكر ، والتحدث بالنعمة ، وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعثه السنة فى

الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطي ، فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغي أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم ، وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ، ولذلك قال — صلى الله عليه وسلم — للرجل الذى مدح بين يديه : « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » . مع أنه — صلى الله عليه وسلم — كان يثنى على قوم فى وجوههم لثقته وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد فى رغبتهم للخير ، فقال لواحد : « إنه سيد أهل الوبر » . وقال — صلى الله عليه وسلم — فى آخر : « إذا جاء كم كريم قوم فأكرموه » . وسمع كلام رجل فأعجبه فقال — صلى الله عليه وسلم — : « إن من البيان لسحرا » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير » ، وقال — صلى الله عليه وسلم — : « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » . وقال الثورى : « من عرف نفسه لم يضره مدح الناس » . وقال أيضا ليوسف بن أسباط : « إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ، ورأيت فى ذلك نعمة من الله عز وجل علىّ . واشكر وإلا فلا تشكر » .

ودقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه فإن إعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع . ومثل هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر ، وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغى أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى ، نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

وقال الإمام الغزالى فى بيان الأفضل ، من أخذ الصدقة أو الزكاة : كان إبراهيم

الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل ، فإن فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ، ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز . وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ، ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا ، ولأن الزكاة لا منة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه وتعالى رزقا لعباده المحتاجين ، ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا ، وأخذ الصدقة أخذ بالدين ، فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ، ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ، إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه ، وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته . والقول الحق فى هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية . فإن كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة ، فإذا علم أنه مستحق قطعا كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضائه ، فهو مستحق قطعا ، فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة ، فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ، ففى ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن فى أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير ، والأمر فيها يتفاوت ، وأخذ الزكاة أشد فى كسر النفس وإذلالها فى أغلب الأحوال والله أعلم (١) .

* * *

(١) انتهى كتاب الزكاة من كتاب إحياء الدين للغزالى .

كانت الدولة قبل الإسلام وبعده مجرد رجل شرطة سلبى كما يقول هربرت سبنسر ، فالدولة الإيرانية كانت تفرض ضرائب عقارية وضرائب شخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة فى السنة . والإمبراطورية الرومانية كانت تعيش على الضرائب ، وقد اتبعت نظاما عجيبا يربط بين المقاطعات الغنية والفقيرة ، فكانت الأولى تسدد بعض ما على الثانية من ضرائب ، فكانت الضرائب فى حقيقة الأمر «أجرا ملكيا» ليقوم الملك بحماية الشعب من المجرمين فى الداخل والغازين القادمين من الخارج ؛ فلم تكن الضرائب سوى نظام سياسى تدخل فى الدراسات السياسية أكثر مما تدخل فى دراسات الاقتصاد .

وجاء الإسلام بنظام مالى فريد فى بابه ، فلم يجعل هم الحاكم تكديس الأموال فى بيت المال بل شرع له ما يحقق الخير العام للجميع . فوظيفة المال فيه اجتماعية للناس جميعا حق فيه ، فلم تعد الدولة مجرد رجل شرطة سلبى ، ولم تعد الضرائب أجرا ملكيا ، بل سار الحاكم والمحكوم فى مال الله سواء ، يأكل الحاكم بالمعروف ، ويشكر الغنى الله على أن جعله مستخلفا فى ماله ، ويعطى للدولة والفقراء والمساكين ما أمر الله به ، فأرهف حس المؤمنين ، فكان خروج المال من خزائنهم أحب إليهم من كسب المال ؛ فكسب المال فريضة ، وإنفاق المال فى وجوهه التى تحقق المصلحة العامة فريضة ، وكنز المال محرم ، فكان العدل والمساواة والحب النابع من قلوب طهرها الإسلام من الأنانية والأثرة والكبرياء .

نجح الإسلام فى أن يجعل أتباعه رقباء على أنفسهم فلم يتهربوا من دفع الزكاة كما يتهرب الممولون من دفع ضرائب الدولة ، فانمحى من نفوسهم الظلم ، وقضى على عدم المساواة ، وخفقت الأفئدة بمشاعر الأخوة بين الفقراء والأغنياء ، وأزيلت الفوارق الاجتماعية بنعمة الله ، فلا صراع بين الطبقات ، ولا حمامات دم ، ولا ظلم طبقة لطبقة ، بل محبة منبثقة من قلوب راضية ، فدافع الزكاة إنما

يدفع من مال الله الذى آتاه ، وآخذ الزكاة إنما يأخذ حقه من مال الله ، والمعطى والقابض مبتليان ، فعلى المعطى أن يكون عطاؤه لوجه الله ، وعلى القابض أن يكون مستحقا لمال الله .

كانت الزكاة محور نظام المالية العامة فى الإسلام ، وهى تختلف عن الضرائب فهى تسمو بالروح وتغمر دافعها بسعادة نفسية لاستجابته لأوامر الله وتطهيرها لأمواله . إنها تقيم صرح البناء الروحى الشامخ للمجتمع الإسلامى ، ذلك الصرح الذى محا الفقر والعوز من المجتمع ، حتى إنه فى أيام عمر بن عبد العزيز لم تجد الدولة مستحقا للزكاة فكانت تنفق ما تجمع من مال الأغنياء فى تحرير الرقاب .

فرضت الزكاة للتحكم فى النفس والهوى وحماية المجتمع من آفات الفقر والعوز ؛ فالغنى يورث الشح والأنانية ويشيع الكراهية بين الناس ، بل وينزل بالمستوى الخلقى لأصحابه ، وخير علاج لذلك أن ينفق الإنسان من مال الله الذى آتاه فى الخير ، فيقطع بذور البخل من نفسه ، ويدرأ كراهية الناس له ، فيصبح الأغنياء والفقراء بنعمة الله إخوانا ، فلا إنقسام ولا حقد ولا ثورات هدامة ولا أزمات اقتصادية ، فالزكاة خير منظم لدورة المال .

وإن عجزت الزكاة عن أن تنهض بالتزامات الدولة ومحو الفقر والعوز من المجتمع ، فللدولة الحق فى فرض ضرائب أخرى على الأغنياء تحقيقا للخير العام ، وليس للأغنياء الحق فى أن يتبرموا فما هم إلا مستخلفون فى مال الله ، وأخذ فضول أموالهم إنما هو استجابة لأوامر الله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(١) . « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(١) . والعفو هو فضل المال ، وواجب الأغنياء أن يردوا وقت الحاجة فضول أموالهم على الفقراء : « لن تنالوا

---

(١) الأعراف ١٩٩ (٢) القرة ٢١٩

البر حتى تنفقوا مما تحبون »[١] . وكان عبد الله بن عمر يقول : « فى مالك حق سوى الزكاة » ، وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه يرى أن الله فرض على مال الأغنياء ما يكفى لسد حاجة كل محتاج ، ولو وجد فى المجتمع جائع أو عار فذلك راجع إلى أن الأغنياء لم ينهضوا بما وجب عليهم .

ويقول ميرزا محمد حسين فى كتابه : « الإسلام والاشتراكية » : « ... فنجاح الزكاة مرتبط بتهيئة الجو النفسى لحب الخير ، والتنفير من الطمع والبخل ، ولعل المساواة فى درجة إلحاح الإسلام على الصلاة والزكاة تدل على قوة الرابطة النفسية بينهما ، هذه الرابطة التى تشبه رابطة الجذور بالثمر .

والزكاة أمر لا روح فيه إن لم تنبع من نفس تهتز بالصلاة وتتخلص من كل آثار الأنانية ، والصلاة بدورها لا فائدة منها إن لم تهيئ نفس المؤمن للاستجابة عن طواعية لما تفرضه المصلحة الحقيقية للمجتمع على الفرد . وإن هذا التفاعل النشيط بين نظام روحى ونظام مادى من نظم المجتمع الإسلامى لهو خير مثال على العلاقة العميقة بين الاقتصاد والدين . والدين بدون الاقتصاد كالطفيليات ترتفع على سنادة طويلة من غيرها ، والاقتصاد بغير الدين بربرية عارية . والرأسمالية هى القمة فى النشاط الاقتصادى الذى لا يخضع للمقاييس الخلقية التى تفرضها الأديان . ولما كان الحافز الخلقى من وراء الزكاة مستمدا من مصدر روحى دائم هو الصلاة ، فإن آثارها الاجتماعية والاقتصادية لا بد أن تكون سليمة ، كما أنه لا بد أن يكون النظام الاجتماعى الناتج منها نقيا من مساوئ الرأسمالية من ناحية ، وغير متورط فى روح القسر وفرض أنموذج عام معين على الفرد كما يحدث فى المجتمع الشيوعى . وقد كان هذا الانسجام الشامل سببا فيما لاحظه هـ . ج . ويلز

---

(١) آل عمران ٩٢

من أن : « الإسلام قد خلق مجتمعا أكثر تحررا من القسوة والظلم الاجتماعى فى روسيا أسوأ ما فيه أنه مفروض من الدولة وبقوة القانون . ومن هنا فإن إحساس الفرد وملكاته العقلية والخلقية تهبط حتى تصبح مجرد آلات اجتماعية . وليس للفرد حرية الحكم والتصرف باعتباره عنصرا مفكرا يستجيب لنزعات الخير فى نفسه .

ويدعى الشيوعيون أن هذا ليس إخضاع « الفردية الفظة » لخلق الظروف التى تكفل نمو الشخصية الجماعية بمعانيها الكبيرة ، ومن المفهوم أن يفرض على الفرد أن يتنازل عن بعض حريته من أجل مصلحة المجتمع الكبرى ، ولكن هذا التنازل لا بد أن يكون عن طوع واختيار إذا أردنا به أن يحقق ما نرجوه من خير .

ويتحقق عنصر الاختيار إذا ما كان الفرد قادرا على تقدير ظروف غيره من الناس ، متأثرا بحب العدالة والرحمة والرفق . وهذه النظرة الإنسانية الشاملة تتأتى بالتجديد الروحى لا بإجراء جراحة اجتماعية هى سلاح السوفييت الوحيد لتحقيق الضمان الاجتماعى .

والإسلام — فى كل برامجه للارتقاء بالمجتمع — يفترض أن كل فرد يمثل مركزا فكريا وثقافيا له قيمته ، وله كذلك كرامته الذاتية . ومن ثم فليس من المقبول أن يحرم من الفرص المختلفة لتنمية شخصيته . ووجهة النظر هذه تفترض فى بادئ الأمر أن يكون نشاط الكفايات والطاقات الطبيعية للإنسان نشاطا حرا متناسقا مع نشاط سواه ، ويلقى الإسلام على عاتق الدولة تبعة التخطيط الاجتماعى ، ولكن هذا لا يعنى أنه يؤيد فكرة فرض الانسجام فرضا . والإسلام يغرس فى نفس المرء حب جاره ويتخذ من هذا الحب رابطة اجتماعية قوية . وقد قال — ﷺ : « إن لجارك عليك حقا » .. وحب الجار وما يلقى على المرء من التزام نحوه نواة كل تخطيط اجتماعى فى المجتمع الإسلامى .

النظام الشيوعى للتأمين الاجتماعى نظام طيب من بعض النواحى فحسب ، وقد يكون نظاما ممتازا إذا ما قورن بالفوضى المتفشية فى الجماعات الرأسمالية ، ولكنه أمر تافه إذا ما قورن بالزكاة التى هى نظام يحقق الضمان الاجتماعى دون أن يتجاهل ذاتية الناس . والتخطيط الاجتماعى فى الإسلام يلغى الامتيازات التى تتعارض مع خير الجماعة ، ولكنه لا يلغى حرية الفرد بمختلف مظاهرها إذا لم تتعارض مع الخير العام ، وقد قُضى فى روسيا وفى الدول الدكتاتورية على الذاتية الفردية قضاء تاما بعد أن ضغطت ذاتيات الأفراد جميعا لتكون كلا اجتماعيا جامدا لا يتقدم » .

جاء فى القرآن العظيم : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾(١) . فلما مات رسول الله ـــ ﷺ ـــ وتولى أبو بكر الخلافة من بعده رأى بعض المسلمين ألا يؤدوا إليه الزكاة التى كانوا يؤدونها لرسول الله ـــ ﷺ ـــ بحجة أن صلاة رسول الله ـــ ﷺ ـــ عليهم كانت سكنا لهم . فقال أبو بكر رضى الله عنه :

ـــ الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ لقلتلتهم على منعها .

وكانت حروب الردة ولم تكن من أجل استرداد الخليفة مكانته ، بل من أجل حق من حقوق الله وركن من أركان الإسلام قرن بالصلاة ، ركن تقوم عليه السياسة المالية فى الدولة الإسلامية ، وترسى عليه أساسات روحية لنظام مادى تحقيقا للخير العام .

كان الناس فى عهد الرسول ـــ ﷺ ـــ يسارعون فى الخيرات ويدعون الله رغبا ورهبا وكانوا لله خاشعين ، فكان أناس لا يكتفون بإخراج الزكاة بل كانوا يخرجون عن كل أموالهم أو نصفها ، فلما لحق رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالرفيق

الأعلى كانت حروب الزكاة بين أبي بكر الصديق والمرتدين، ثم جمع الجباة الزكاة وقسمت فى وجوهها وتولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر فكانت الفتوحات وتدفقت الأموال على المدينة، فدون عمر الدواوين ولم يقسم بالسوية بين المسلمين كما كان الحال فى عهد الرسول — ﷺ — وخليفته الصديق . فعمر وضع الناس على حسب منازلهم فى الإسلام، فالسابقون فى الإسلام ميزهم عن الذين تأخر إسلامهم، ولم يساو بين الذين حاربوا مع الإسلام والذين حاربوا الإسلام. فلما ولى على بن أبي طالب أمر المسلمين سوى بين الجميع. وانتقلت الخلافة فى زمن بنى أمية إلى ملك، فكان الخلفاء يحاولون أن يتبعوا فى المال ما جاء فى القرآن والسنة واجتهادات الخلفاء الراشدين، وانقضت الخلافة الأموية وجاء العباسيون، فلما أصبح هارون الرشيد أمير المؤمنين سأل قاضي القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة أن يضع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات، فوضع أبو يوسف كتاب الخراج وهو أول كتاب يبين موارد الدولة فى التاريخ وسبل إنفاقها، وأول كتاب يهتم بالمالية والاقتصاد قبل أن يهتم آدم سميث بالاقتصاد بأكثر من ألف عام. ولو أنصف الاقتصاديون لقالوا إن أبا يوسف أبو الاقتصاد وأبو المالية العامة.

وإن أروع ما كتب للحكام والملوك تلك المقدمة التى قدم بها أبو يوسف كتابه لهارون الرشيد: « ... يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قلّدك أمرا عظيما، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم. وليس يلبث البنيان — إذا أسس على غير التقوى — أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة فى العمل بإذن الله ... وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر

خلفاء فى أرضه ، وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين ، وإحياء السنن التى سنها القوم الصالحون أعظم موقعا ؛ فإن إحياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت . وجور الراعى هلاك للرعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ، فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها ، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد»(١) . وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد . والعمل بالمعاصى كفر النعم ، وقلَّ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم . وإنى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى منَّ عليك بمعرفته فيما ولاك ، ألا يكلك فى شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه ، فإنه ولى ذلك والمرغوب إليه فيه » .

واستمر أبو يوسف فى كتابة موعظته يسوق أحاديث ترغيب وترهيب ، ثم بدأ كتاب الخراج بباب فى قسمة الغنائم قال فيه :

« أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فإن الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك فى كتابه ، فقال فيما أنزله على رسوله ـــ ﷺ : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾(١) . فهذا والله

---

(١) الأنفال ٤١

أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فإن ذلك الخمس لمن سمى الله عز وجل فى كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء فى الأحاديث والآثار ، ولا يفضل الخيل بعضها على بعض لقوله تعالى فى كتابه : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] . والعرب تقول : هذه الخيل وفعلت الخيل . لا يعنون بذلك الفرس دون البرذون ، ولعامة البراذين أقوى من كثير من الخيل وأوفق للفرسان ، ولا يخص منها شىء دون شىء ، ولا يفضل الفرس القوى على الفرس الضعيف ، ولا يفضل الرجل الشجاع التام السلاح على الرجل الجبان الذى لا سلاح معه إلا سيفه .

وعن ابن عباس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قسم غنائم بدر : للفارس سهمان وللراجل سهم . وقال أبو ذر الغفارى : « شهدت أنا وأخى مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حنينا ومعنا فرسان لنا ، فضرب لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمين لنا ، فبعنا الستة أسهم بحنين ببكرين .

وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول : للرجل سهم وللفرس سهم . وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم ، ويحتج بأن عاملا لعمر بن الخطاب قسم فى بعض الشام للفرس سهم وللراجل سهم فرفع ذلك إلى عمر فسلمه وأجازه . فكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهما وللرجل سهما . وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهما أكثر

---

(١) الأنفال ٦٠

من ذلك وأوثق والعامة عليه . ليس هذا على وجه التفضيل ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغى أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم ، لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم ، إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه ؟ والمتطوع وصاحب الديوان فى القسمة سواء . فخذ يا أمير المؤمنين أى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين ، فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله تعالى ، ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين . عن الحسن فى الرجل يكون فى الغزو ومعه الأفراس قال : « لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين » .

كان الخمس فى عهد رسول الله — ﷺ — على خمسة أسهم : ﷺ وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم . ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وقسم على الثلاثة الباقى . ثم قسمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان . وقد روى لنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

— عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيّمنا ، ونقضى منه عن مغرمنا . فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

وكتب الزهرى إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس : « كتبت إلىّ تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن ننكح منه أيّمنا ، ونقضى منه عن مغرمنا ، ونخدم منه عائلنا ، فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

فما كان رأى على كرم الله وجهه فى الخمس ؟ كان رأيه فيه رأى أهل بيته ؛

ولكنه لما أصبح أميرا للمؤمنين كره أن يخالف أبا بكر وعمر . وقد قال على رضى الله عنه : « قلت يا رسول الله إن رأيت أن توليني حقنا فى الخمس فأقسمه فى حياتك كى لا ينازعنا أحد بعدك فافعل . ففعل فولانيه رسول الله — ﷺ — فقسمته فى حياته ، ثم ولانيه أبو بكر رضى الله عنه فقسمته فى حياته ، ثم ولانيه عمر رضى الله عنه فقسمته فى حياته ، حتى إذا كان آخر سنة من سنى عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ، ثم أرسل إلىّ فقال : خذه فاقسمه . فقلت : يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غنى وبالمسلمين إليه حاجة ، فرده عليهم تلك السنة ، ثم لم يدعنا إليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامى هذا ، فلقينى العباس بن عبد المطلب بعد خروجى من عند عمر رضى الله عنه فقال : يا على لقد حرمتنا الغداة شيئا لا يرد علينا أبدا إلى يوم القيامة .

وقيل : اختلف الناس بعد وفاة رسول الله — ﷺ — فى هذين السهمين : سهم الرسول عليه السلام وسهم ذوى القربى ، فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده . وقالت طائفة : سهم ذوى القربى لقرابة الرسول عليه السلام . فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين فى الكراع والسلاح .

وكان أبو حنيفة رحمه الله وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

قال أبو يوسف : فعلى هذا تقسم الغنيمة . فلما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب فى المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن فى ذلك الخمس — فى أرض العرب كان أو فى أرض العجم — وخمسه الذى يوضع فيه مواضع الصدقات .

وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر ، فالخمس يوضع فى مواضع الغنائم

على ما قال الله عز وجل فى كتابه : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فى كل ما أصيب من المعادن فى قليل أو كثير الخمس . ولو أن رجلا أصاب فى معدن أقل من وزن مائتى درهم فضة أو أقل من وزن عشرين مثقالا ذهبا ، فإن فيه الخمس ؛ ليس هذا على موضع الزكاة إنما هو على موضع الغنائم ، وليس فى تراب ذلك شىء ، إنما الخمس من الذهب الخالص وفى الفضة الخالصة والحديد والنحاس والرصاص ، ولا يحسب لمن استخرج ذلك من نفقته عليه شىء . وقد تكون النفقة تستغرق ذلك كله فلا يجب إذن فيه خمس عليه ، وفيه الخمس حين يفرغ من تصفيته قليلا كان أو كثيرا ، ولا يحسب له من نفقته شىء .

وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجارة مثل الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمغرة فلا خمس فى شىء من ذلك ، فإنما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب .

ولو أن الذى أصاب شيئا من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الرصاص أو النحاس كان عليه دين فادح لم يبطل ذلك الخمس عنه . ألا ترى لو أن جندا من الأجناد أصابوا غنيمة من أهل الحرب خمست ولم ينظر أعليهم دين أم لا ، ولو كان عليهم دين لم يمنع ذلك من الخمس .

وأما الركاز فهو الذهب والفضة الذى خلقه الله عز وجل فى الأرض يوم خلقت ، فيه أيضا الخمس . فمن أصاب كنزا عاديا فى غير ملك أحد — فيه ذهب أو فضة أو ثياب — فإن فى ذلك الخمس ، وأربعة أخماس للذى أصابه وهو بمنزلة الغنيمة يغنمها القوم فتخمس وما بقى فلهم .

ولو أن حربيا وجد فى دار الإسلام ركازا وكان قد دخل بأمان ، نزع ذلك كله منه ولا يكون له منه شىء ، وإن كان ذميا أخذ منه الخمس كما يؤخذ من المسلم

وسلم له أربعة أخماس . وكذلك المكاتب يجد ركازا فى دار الإسلام فهو له بعد الخمس ، وكذلك العبد وأم الولد والمدبر .

وإذا وجد المسلم ركازا فى دار الحرب ، فإن كان دخل بغير أمان فهو له ولا خمس فى ذلك حيثما وجد ، كان فى ملك إنسان من أهل الحرب أو لم يكن فى ملك إنسان فلا خمس فيه ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب . وإن كان إنما دخل بأمان فوجده فى ملك إنسان منهم فهو لصاحب الملك ، وإن وجده فى غير ملك إنسان منهم فهو للذى وجده .

وقال أبو يوسف فى الفىء والخراج : فأما الفىء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه : ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾(١) . حتى فرغ من هؤلاء ، ثم قال عز وجل : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولـٰئك هم الصادقون »(٢) . ثم قال تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولـٰئك هم المفلحون ﴾(٣) . ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾(٤) . فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .

---

(١) الحشر ٧ (٢) الحشر ٨

(٣) الحشر ٩ (٤) الحشر ١٠

وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا :

ـــ قسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر .

فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الآيات وقال :

ـــ قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفىء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء ، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه فى وجهه .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء . وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وله سهم فى الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام ، لأنهم أحرزوه قبل إسلامه ، فهذا عهدى إليك » .

قال أبو يوسف : وحدثنى غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، شاور أصحاب محمد ـــ ﷺ ـــ فى تدوين الدواوين . وقد كان اتبع رأى أبى بكر فى التسوية بين الناس ، فلما فتح العراق شاور الناس فى التفضيل ورأى أنه الرأى ، فأشار عليه بذلك من رآه . وشاورهم فى قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم

وما فتحوا ، فقال عمر رضى الله عنه :

ــ فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت . ما هذا برأى .

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

ــ فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم .

فقال عمر :

ــ ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كَلّا على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟

فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا :

ــ أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول :

ــ هذا رأى .

ــ فاستشر .

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

ــ إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإنى

واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

— قل نسمع يا أمير المؤمنين .

— سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضيهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام — كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر — لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعا :

— الرأى رأيك ، فنعم ماقلت ومارأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

— قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا :

— تبعثه إلى أهم ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة .

فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض العراق ، فأدت جباية سواد الكوفة قبل

أن يموت عمر رضى الله تعالى عنه بعام مائة ألف ألف درهم ، والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وقال أبو يوسف فى كيفية فرض عمر لأصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ : قدم على أبى بكر رضى الله عنه مال فقال :

ـــ من كان له عند النبى ـــ ﷺ ـــ عدة فليأت .

فجاءه جابر بن عبد الله فقال :

ـــ قال لى رسول الله ـــ ﷺ ـــ : لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا . يشير بكفيه : فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

ـــ خذ .

فأخذ بكفيه ثم عده فوجده خمسمائة ، فقال :

ـــ خذ إليها ألفا .

فأخذ ألفا ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعده شيئا ، وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالتسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى ، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان . فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك ، فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاء ناس من المسلمين فقالوا :

ـــ يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم .

ـــ أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

فلما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الفتوح وجاءت الأموال

قال :

ـــ إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر . لا أجعل من قاتل رسول الله ـــ ﷺ ـــ كمن قاتل معه .

ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبى ـــ ﷺ ـــ اثنى عشر ألفا اثنى عشر ألفا ، إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبتا أن تقبلا فقال لهما :

ـــ إنما فرضت لهن للهجرة .

فقالتا :

ـــ لا . إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكان لنا مثله .

فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثنى عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله ـــ ﷺ ـــ اثنى عشر ألفا ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله ابن عمر ـــ ابنه ـــ ثلاثة آلاف ، فقال :

ـــ يا أبت لم زدته علىّ ألفا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى ، وما كان له ما لم يكن لى ؟

ـــ إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك .

وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف ، ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله ـــ ﷺ . وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمر عمر بابن أبى سلمة فقال :

ـــ زيدوه ألفا .

فقال له عمر بن عبد الله بن جحش :

ـــ ما كان لأبيه ما لم يكن لآبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا .

ـــ إنى فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفا ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا .

وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فجاء طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة ، فمر به النضر بن أنس فقال عمر :

ـــ افرضوا له ألفين .

فقال له طلحة :

ـــ جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة ، وفرضت لهذا ألفين .

ـــ إن أبا هذا لقينى يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد قتل فإن الله حى لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاة فى مكان كذا وكذا .

فعمل عمر بهذا خلافته .

لما فتح الله على عمر وفتح فارس والروم جمع أناسا من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ ما ترون ؟ فإنى أرى أن أجعل عطاء الناس فى كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم للبركة .

ـــ اصنع ما رأيت ، فإنك إن شاء الله موفق .

ففرض الأعطيات فدعا باللوح فقال :

ـــ بمن أبدأ ؟

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

ـــ ابدأ بنفسك .

ـــ لا والله ولكن أبدأ ببنى هاشم رهط النبى ـــ ﷺ ـــ .

فبدأ بالأقرب من رسول الله — ﷺ — ففرض للعباس ثم لعلى رضى الله عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بنى عدى بن كعب (رهطه) .

وقال أبو يوسف عن أبي هريرة : قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسيا فقلت :

— يا أمير المؤمنين اقبض هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— وتدرى كم خمسمائة ألف ؟

— نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات .

— أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح .

فلما أصبحت أتيته فقلت :

— اقبض منى هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— أمن طيب هو ؟

— لا أعلم إلا ذاك .

فقال عمر رضى الله عنه :

— أيها الناس إنه قد جاء مال كثير ، فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن نعد لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزنًا لكم .

فقال رجل من القوم :

— يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها .

فاشتهى عمر ذلك فرض للمهاجرين وللأنصار ولأزواج النبى ، فلما أتى

زينب بنت جحش مالها قالت :

ــ غفر الله لأمير المؤمنين ، لقد كان فى صويحباتى من هو أقوى على قسمة هذا المال منى .

فقيل لها :

ــ إن هذا كله لك .

فأمرت به فصب وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها :

ــ أدخلى يدك لآل فلان وآل فلان .

فلم تزل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التى تدخل يدها :

ــ لا أراك تذكرينى ولى عليك حق .

ــ لك ما تحت الثوب .

فكشفت الثوب فإذا ثم خمسة وثمانون درهما . ثم رفعت يدها فقالت :

ــ اللهم لا يدركنى عطاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد عامى هذا أبدا .

فكانت رضى الله عنها أول أزواج النبى لحوقا به عليه السلام .

وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبى ــ ﷺ ــ وأعطاهن .

وجعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى زيد بن ثابت عطاء الأنصار ، فبدأ بأهل العوالى ، فبدأ ببنى عبد الأشهل ثم الأوس لبعد منازلهم ، ثم الخزرج حتى كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد .

وحمل أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألف ألف ، فقال عمر :

ــ بكم قدمت ؟

ــ بألف ألف .

فأعظم ذلك عمر وقال :

— هل تدرى ما تقول ؟

— نعم . قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات .

— إن كنت صادقا ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه فى وجهه .

وقال عمر :

— والله الذى لا إلـٰه إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو مُنعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله — ﷺ — فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وعناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعنى فى طلبه) .

قال عمر : الرجل وحاجته ، قبل أن يقولها ماركس بأكثر من ألف عام !.

وأسهب أبو يوسف فى خراج الأرض وقال إن القطائع ما كان منها سيحا على العشر ، أى ما كانت تسقى بالمطر أو الترع أو الأنهار ، وما سقى منها بالدلو والغرب والساقية فعلى نصف العشر لمؤنة الدالية والغرب والساقية ، فالإسلام يعطى ثمن الجهد ، وليس على الخضر التى لا بقاء لها ولا على الأعلاف ولا على الحطب عشر ، والذى لا يبقى فى أيدى الناس هو مثل البطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والفول والرياحين وأشباه هذا فليس فى هذا عشر . وأما ما يبقى فى أيدى الناس مما يكال بالقفيز ويوزن بالأرطال مثل الحنطة والشعير والذرة والأرز والحبوب والسمسم واللوز والبندق والجوز والفستق والزعفران والزيتون والقرطم والكزبرة والكراويا والكمون والبصل والثوم وما أشبه ذلك ، فإذا أخرجت الأرض من ذلك خمسة أوسق أو أكثر ففيه العشر إذا كان فى

أرض تسقى سيحا أو سقتها السماء، وإذا كانت فى أرض تسقى بغرب أو دالية أو ساقية ففيه نصف العشر ، وإذا نقص عن خمسة أوسق لم يكن فيه شىء . وإذا أخرجت الأرض نصف خمسة أوسق حنطة ونصف خمسة أوسق شعيرا كان فيها العشر ، وكذلك لو أخرجت قدر وسق من حنطة وقدر وسق من شعير وقدر وسق من أرز وقدر وسق من تمر وقدر وسق من زبيب ، وتم ذلك خمسة أوسق كان فى ذلك العشر ، وإن نقص عن خمسة أوسق وسق أو أقل أو أكثر لم يكن فيه العشر ما خلا الزعفران ، فإنه إذا كان فى أرض العشر وأخرج الله منه ما يكون قيمته قيمة خمسة أوسق من أدنى ما تخرج الأرض من الحبوب مما عليه العشر ففيه العشر إذا كان يسقى سيحا أو تسقيه السماء ، وإذا سقى بغرب أو دالية فنصف العشر ، وإذا كان فى أرض الخراج ففيه الخراج على هذه الصفة ، وإذا لم تبلغ قيمة ذلك قيمة خمسة أوسق فلا شىء فيه .

وكان أبو حنيفة يقول : إذا كان الزعفران فى أرض العشر ففيه العشر وإن لم تخرج الأرض منه إلا رطلا واحدا ، وإن كان فى أرض الخراج ففيه الخراج .

والوسق ستون صاعا بصاع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالخمسة أوسق ثلاثمائة صاع ، والصاع خمسة أرطال وثلث .

وقال أبو يوسف فى موات الأرض فى الصلح والعنوة وغيرهما : وما سألت يا أمير المؤمنين عن الأرضين التى افتتحت عنوة أو صولح عليها أهلها ، وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد ، ما الصلاح فيها ؟ فإذا لم يكن فى هذين الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك لأحد ولا فى يد أحد ، فهى موات فمن أحياها أو أحيا منها شيئا فهى له . ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤاجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح .

وكل من أحيا أرضا مواتا فهى له .

وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : من أحيا أرضا مواتا فهى له إذا أجازها الإمام ، ومن أحيا أرضا مواتا بغير إذن الإمام فليست له وللإمام أن يخرجها من يده ويصنع فيها ما رأى من الإجارة والإقطاع وغير ذلك .

وقيل لأبى يوسف : ما ينبغى لأبى حنيفة أن يكون قد قال هذا إلا من شىء ، لأن الحديث قد جاء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أحيا أرضا مواتا فهى له » . فبين لنا ذلك الشىء فإنا نرجو أن تكون قد سمعت منه فى هذا شيئا يحتج به .

قال أبو يوسف : حجته فى ذلك أن يقول : الإحياء لا يكون إلا بإذن الإمام ، أرأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد منهما منع صاحبه ، أيهما أحق به ؟ أرأيت إن أراد رجل أن يحيى أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها فقال : لا تحيها فإنها بفنائى وذلك يضرنى . فإنما جعل أبو حنيفة إذن الإمام فى ذلك هاهنا فصلا بين الناس ، فإذا أذن الإمام فى ذلك لإنسان كان له أن يحييها وكان ذلك الإذن جائزا مستقيما . وإذا منع الإمام أحدا كان ذلك المنع جائزا ، ولم يكن بين الناس اتشاح فى الموضع الواحد ولا الضرار فيه مع إذن الإمام ومنعه . وليس ما قال أبو حنيفة يرد الأثر ، إنما رد الأثر أن يقول : وإن أحياها بإذن الإمام فليست له ، فأما من يقول : هى له فهذا اتباع الأثر ، ولكن بإذن الإمام ليكون إذنه فصلا فيما بينهم من خصوماتهم وإضرار بعضهم ببعض .

وقال عمر بن الخطاب على المنبر : « من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجر بعد ثلاث سنين » . وذلك لأن رجالا كانوا يحتجرون من الأرض ما لا يعلمون .

وقال أبو يوسف فى حد أرض العشر من أرض الخراج : فأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من حد أرض العشر من حد أرض الخراج ، فكل أرض أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم وهى أرض عشر ، بمنزلة

المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمنزلة اليمن . وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة الأوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وإن ظهر عليها الإمام ، لأن رسول الله ــ ﷺ ــ قد ظهر على أرضين من أرض العرب وتركها فهي أرض عشر حتى الساعة .

وأيما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها فى أيدى أهلها فهى أرض خراج وإن قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ظهر على أرض الأعاجم وتركها فى أيديهم فهى أرض خراج ، وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج .

وقال أبو يوسف فيما يخرج من البحر : وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرهما فلا شيء فيه . وقد كان أبو حنيفة وابن أبى ليلى رحمهما الله يقولان : ليس فى شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإنى أرى فى ذلك الخمس وأربعة أخماسه لمن أخرجه ، لأنه قد روينا فيه حديثا عن عمر رضى الله عنه ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافه . واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلى بن أمية على البحر ، فكتب إليه فى عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعما فيها ، فكتب إليه عمر : « إنه سيب من سيب الله . وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس » . وقال عبد الله بن العباس : « وذلك رأيى » .

وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك ، فإن فى العسل العشر إذا كان فى أرض العشر ، وإذا كان فى أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان فى المفاوز والجبال على الأشجار أو فى الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون فى الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر .

كتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أصحاب النحل لا يؤدون إلينا ما كانوا يؤدون إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويسألون مع ذلك أن نحمى لهم أوديتهم ، فاكتب إلى برأيك فى ذلك . فكتب إليه عمر : « إن أدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فاحم أوديتهم ، وإن لم يؤدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فلا تحم لهم » . وكانوا يؤدون إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — من كل عشر قرب قربة .

وأما اللوز والجوز والبندق والفستق وأشباه ذلك ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج لأنه يكال .

وليس فى القصب ولا فى الحطب ولا فى الحشيش ولا فى التبن ولا فى السعف عشر ولا خمس ولا خراج .

وأما قصب السكر ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج ، لأنه ثمر يؤكل .

وقال أبو يوسف فى الصدقات : وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة فى الإبل والبقر والغنم والخيل ، وكيف ينبغى أن يعامل من وجب عليه شىء من الصدقة فى كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه ، والعمل فى ذلك بما سنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شىء ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء . هكذا روى لنا عن نبينا — صلى الله عليه وسلم — وأنا أسأل الله أن يجعلك ممن استن بفعله ورضى عمله وأعظم عليه ثوابه ، وأن يعينك على ما ولاك ويحفظ لك ما استرعاك ، وقد ذكرت ما بلغنا أنه أوجب على كل صنف من هذه الأصناف ، وعليه أدركت فقهاءنا ، وهو المجمع

عليه عندنا ، وهو أحسن ما سمعنا فى ذلك حديثا عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب كتابا فى الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته ، فلم يخرجه حتى قبض ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعمل به أبو بكر حتى هلك ، ثم عمل به عمر ، قال فكان فيه : « فى كل أربعين شاة شاة ، إلى مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة ، وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة ، وفى خمس من الإبل شاة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمسة وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمسة وسبعين ، فإن زادت ففيها بنتا لبون إلى تسعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن زادت على مائة وعشرين ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون ، ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية » .

لما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذا إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعا أو تبيعة ، ومن كل أربعين مسنة ، وقد بلغنا مثل ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

وعن على رضى الله عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » .

فأما الإبل العوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة ، لم يأخذ معاذ منها شيئا ، وهو قول على رضى الله تعالى عنه قال : « والجواميس والبخت بمنزلة الإبل والبقر ، وهى كمعز الشاة وضأنها » .

ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى

ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة منها ، بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ، ولا يحتال فى إبطال الصدقة بوجه ولا سبب .

ولا ينبغى أن يدخل مال الصدقة فى مال الخراج ، لأن الخراج فىء لجميع المسلمين والصدقات لمن سمى الله عز وجل فى كتابه : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل﴾(١) . فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا ، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم ، وإن كان أقل من الثمن أو أكثر أعطى الوالى منها ما يسعه ويسع عماله من غير سرف ولا تقتير ، وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم ، وللغارمين — وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم — سهم ، وفى أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون ، وفى الرقاب سهم ، وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ، ولا بأس أن تعطى الصدقة فى صنف واحد .

وسألت أمير المؤمنين عن بيع السمك فى الآجام ومواضع مستنقع الماء ، فلا يجوز بيع السمك فى الماء لأنه غرر وهو للذى يصيده ، فإن كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه . ومثله إذا كان يؤخذ بغير صيد كمثل سمك فى حُب (خابية) ، وإلا فإذا كان لا يؤخذ إلا بصيد فمثله كمثل ظبى فى البرية أو طير فى السماء ، ولا يجوز بيع ذلك لأنه غرر وهو للذى صاده ، وقد رخص فى بيع السمك فى الآجام أقوام ، فكان الصواب عندنا والله أعلم فى قول من كرهه .

قال عمر بن الخطاب : « لا تبايعوا السمك فى الماء فإنه غرر » . وكتب أبو زناد إلى عمر بن عبد العزيز فى بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق : « أنؤاجرها ؟ »

---

(١) التوبة ٦٠

فكتب أن افعلوا . و كتب إلى عمر بن عبد العزيز عن بيع صيد الآجام فكتب أن لا بأس به وسماه الحسن .

وتكلم أبو يوسف فى إجارة الأرض البيضاء وذات النخل والمزارعة عنده على وجوه : منها عارية ليست فيها إجارة ، وهو الرجل يعير أخاه أرضا يزرعها ولا يشترط عليه إجارة فيزرعها المستعير ببذره وبقره ونفقته فالزرع له والخراج على رب الأرض ، فإن كانت من أرض العشر فالعشر على الزارع وبه يقول أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه .

ووجه آخر : تكون الأرض للرجل ، فيدعو الرجل إلى أن يزرعها جميعا والنفقة والبذرة عليهما نصفان ، فهذا مثل الأول الزرع بينهما والعشر فى الزرع إن كانت أرض عشر ، وإن كانت أرض خراج فالخراج على رب الأرض .

ووجه آخر : إجارة أرض بيضاء بدراهم مسماة سنة أو سنتين ، والأرض البيضاء هى التى تخلو من النخل والشجر فهذا جائز والخراج على رب الأرض فى قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وإن كانت أرض عشر فالعشر على رب الأرض .

وقال أبو يوسف : المزارعة جائزة على شروطها ، والخراج على رب الأرض ، والعشر عليهما جميعا فى الزرع ، فهذا الوجه الرابع .

ووجه آخر : أن يكون للرجل أرض وبقر وبذر فيدعو فلاحا فيدخله فيها فيعمل ذلك ويكون له السدس أو السبع . فهذا فاسد فى قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ومن وافقه ، والزرع فى قولهم لرب الأرض ، وللفلاح أجر مثله . والخراج على رب الأرض ، والعشر فى الطعام .

وهو عند أبى يوسف جائز على ما اشترط عليه على ما جاءت به الآثار ، قال أبو يوسف : ولو أن رجلا دفع إلى رجل رحى ماء يقوم عليها ويؤاجرها ويطحن

للناس فيها بالأجر على النصف فهذا فاسد لا يجوز ، وكذلك الرجل يدفع إلى الرجل بيوت قرية أو دار أو دواب أو سفينة يؤاجرها ويكتسب عليها فما أخرج الله من شيء فبينهما نصفان فهذا لا يجوز فى قول أبى حنيفة وفى قولى ، وليس هذا بمنزلة ما ذكرنا من المعاملة والمزارعة ، للأجير فى هذا الوجه الفاسد أجر مثله على مالك ذلك ، وما كان من غلة الرحى والسفينة فهى لصاحبها .

وقال أبو يوسف فى الجزر : وسألت يا أمير المؤمنين عن الجزائر التى تكون فى دجلة والفرات ينضب عنها الماء ، فجاء رجل وهى جزيرة أرض له فحصنها من الماء وزرع فيها ، أو إذا نضب الماء عن جزيرة دجلة أو الفرات فجاء رجل ملاصق الجزيرة بأرض له فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له ، وهذا مثل الأرض الموات إذا كان ذلك لا يضر بأحد ، وإن كان يضر أحدا منع من ذلك ولم يترك يحصنها ولا يزرع فيها ويحدث فيها حدثا إلا بإذن الإمام .

وشرح أبو يوسف رأيه فى القنى والآبار والأنهار والشرب ، فقال إن كان النهر الذى أضر بمنازل قوم قديما فإنه يترك على حاله ، وإن كان محدثا من فعل وال أو غيره نظر فى ذلك إلى منفعته وإلى ضرره ، فإن كانت منفعته أكثر ترك على حاله ، وإن كان ضرره أكثر أمر بهدمه وطمه وتسويته بالأرض .

وكل من له عين أو بئر قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة والشفة : الشرب لبنى آدم والبهائم والنعم والدواب ، وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنخل والشجر ، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا بإذنه ، فإن أذن له فلا بأس بذلك ، وإن باعه ذلك لم يجز البيع ولم يحل للبائع والمشترى لأنه مجهول غرر لا يعرف . وكذلك إذا كان فى مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول فلا خير فى بيعه أيضا ، ولو سمى كيلا معلوما أو عدد أيام

معلومة لم يجز ذلك أيضا للحديث الذى جاء فى ذلك والسنة .

ولا بأس ببيع الماء إذا كان فى الأوعية ، هذا ماء قد أحرز فإذا أحرزه فى وعائه فلا بأس ببيعه . وإن هيأ له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماء كثيرا ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع فى الأوعية ، فقد أحرزه وقد طاب بيعه ، فإذا كان يجتمع من السيول فلا خير فى بيعه ، وإن كان فى بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير فى بيعه ولو باعه لم يجز البيع . ومن استقى منه شيئا فهو له ، ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذى يستقيه حتى يستطيب نفس صاحبه ، ألا ترى أنه لا يطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه .

قال — صلى الله عليه وسلم — : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « لا تمنعوا كلأ ولا ماء ولا نارا ، فإنه متاع للمقوين وقوة للمستضعفين » .

والمسلمون جميعا شركاء فى كل نهر أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والحافر والخف ، وليس لأحد أن يمنع ، ولكل قوم شرب أرضهم ونخلهم وشجرهم لا يحبس الماء عن أحد دون أحد ، وليس النهر الأعظم لعامة المسلمين كنهر خاص لقوم ليس لأحد أن يدخل عليهم ، وأصحاب هذا النهر فيه شفعاء لو باع أحدهم أرضا له ، ولهم أن يمنعوا من أن يسقى أحد من نهرهم أرضه أو شجره أو نخله ، وليس النهر العظيم كذلك فإنه يسقى منه من شاء وتمر فيه السفن ، ولا يكونون فيه شفعاء لشركتهم فى شربه .

لو أن رجلا اتخذ مشرعة فى أرضه على شاطئ النهر يستقى منها السقاءون ويأخذ منهم فيها الأجرة ، فإن ذلك لا يجوز ولا يصلح ، لأنه لم يبعهم شيئا ولم

يؤاجرهم أرضا .

وإن كانت أرض لرجل وأراد المسلمون أن يمروا فيها ليستقوا الماء فمنعهم من ذلك ، فإن الإمام ينظر فى ذلك ، فإن لم يكن لهم طريق يستقون منه الماء غيره لم يكن له أن يمنعهم ومروا فى أرضه ومشرعته بغير أجر ولا كرى ، لأنه لا يستطيع أن يمنع الشفة ؛ وإن كان لهم طريق غير ذلك كان له أن يمنعهم من الممر .

وقال أبو يوسف فى الكلأ والمروج : ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم فهى لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل فى ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلأ ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا فى تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ، ولا يجوز لأحد أن يسوق ذلك الماء إلى مزرعة له إلا برضى من أهله ، وليس شرب المواشى والشفة كسقى الحرث . وليس لأحد أن يحدث مرجا فى ملك غيره ولا يتخذ فيه نهرا ولا بئرا ولا مزرعة إلا بإذن صاحبه ، ولصاحبه أن يحدث ذلك كله ، فإذا أحدثه لم يكن لأحد أن يزرع فيما زرع ولا يحتجزه ، وإذا كان مرجا فصاحبه وغيره فيه سواء مشتركون فى كلئه ومائه .

وليست الآجام كالمروج ، ليس لأحد أن يحتطب من أجمة أحد إلا بإذنه ، فإن فعل ضمن ، وإن صاد فيها شيئا من السمك أو الطير فهو له من قبل أن رب الأجمة لا يملك ذلك . ألا ترى أن رجلا لو صاد فى دار رجل أو بستانه شيئا من الوحش أو الطير أن له ذلك ، وليس لصاحب الدار ملك عليه ، وله أن يمنعه من دخول داره وبستانه ، فإن دخل بغير إذنه فقد أساء ، وما صاد فهو له أيضا ، وإذا كان السمك قد حظر عليه فإنه كان لا يؤخذ إلا بصيد فالمحظور عليه وغير المحظور سواء لا يجوز بيعه حتى يصاد ، وإن كان يؤخذ

باليد بغير صيد فهو لصاحبه الذى حظر عليه ، وإن صاده غيره ضمن الذى يصيده ، وإن باعه صاحبه قبل أن يأخذه فإن بيعه هذا بمنزلة بيع ما أحرزه فى إنائه .

ولو أن صاحب بقر رعى بقره فى أجمة غيره لم يكن له ذلك ، وضمن ما رعى وأفسد ، ألا ترى أنى أبيع قصب الأجمة وأدفعها معاملة فى قصبها ؟ هذا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عامل أهل أجمة بُرْس على أربعة آلاف درهم وكتب لهم كتابا فى قطعة أديم . والكلأ يباع ولا يدفع معاملة . ولو لم يكن لأهل هذه القرية الذين تكون لهم هذه المروج وفى ملكهم موضع مسرح ومرعى لدوابهم ومواشيهم غير هذه المروج ، كما لأهل كل قرية من قرى السهل والجبل ، فإن لكل قرية من قرى السهل والجبل موضع مسرح ومرعى ومحتطب فى أيديهم ، وينسب إليهم وترعى فيه مواشيهم ودوابهم ويحتطبون منه ، وكانوا متى أذنوا للناس فى رعى تلك المروج والاحتطاب منها وأضر ذلك بهم وبمواشيهم ودوابهم كان لهم أن يمنعوا كل من أراد أن يرعى فيها أو يحتطب منها ، وإن كان لهم مرعى وموضع احتطاب حولهم ليس له مالك فإنه لا ينبغى لهم ، ولا يحل لهم أن يمنعوا الاحتطاب والرعى من الناس .

وإذا كان الحطب فى المروج وهى ملك إنسان فليس لأحد أن يحتطب منها إلا بإذنه ، فإن احتطب منها ضمن قيمة ذلك لصاحبه ، فإن لم يكن فى تلك لأحد ملك فلا بأس أن يحتطب منه جميع الناس ، ولا بأس أن يحتطب ما لم يعلم له مالكا ، وكذلك الثمار فى الجبال والمروج والأودية من الشجر ما لم يغرسه الناس ، ولا بأس يأكل من ثمارها ويتزود ما لم يعلم أن ذلك فى ملك إنسان ، وكذلك العسل يوجد فى الجبال والغياض فلا بأس أن يأكله ، وليس العسل فى الجبال مما

لا يكون فى ملك إنسان من قبل أن الذى يتخذه الناس يكون فى الكُوَارات[١] فما لم يحرز منها فهو مباح كفراخ الصيد من الطير ، وبيضه يكون فى الغياض .

ولو أن رجلا أحرق كلأ فى أرضه فذهبت النار فأحرقت مال غيره لم يضمن رب الأرض لأن له أن يوقد فى أرضه ، وكذلك لو أحرق حصائد فى أرضه كان مثل ذلك . وكذلك صاحب الأجمة يحرق ما فيها من القصب فتحرق النار مال غيره فلا ضمان عليه ، وهما مثل الذى يسقى أرضه فيغرق الماء أرض رجل إلى جنبه أو تنز فليس عليه فى ذلك ضمان ، ولا يحل لمسلم أن يعتمد الإضرار لجاره ولا القصد لتغريق أرضه ، ولا لتحريق زرعه بشىء يحدثه فى أرض نفسه .

وقال أبو يوسف فى تقبيل[٢] السواد واختيارهم الولاة لهم والتقدم إليهم : ورأيت أن لا تقبَّل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فإن المتقبل (المتعاقد على توريد قيمة ثابتة محدودة عن الخراج) إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف (ظلم) أهل الخراج وحملهم عليهم ما لا يجب عليهم : وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ، وضرب لهم شديد ، وإقامته لهم فى الشمس ، وتعليق الحجارة فى الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه ، إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم .

---

(١) كوارة النحل : شىء يتخذ للنحل من القضبان أو الطين ضيق الرأس .

(٢) التقبيل : هو الالتزام بعقد بأن يلتزم أحد الولاة بدفع مبلغ معين للخراج ويطلق يده فى الخراج .

وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم ، فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ، ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شىء ، ولن يقل مع الصلاح شىء . إن الله قد نهى عن الفساد ، قال عز وجل : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾[١] . وقال : ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾[٢] . وإنما هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم ، وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم . والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يسع .

وإن جاء أهل ناحية أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال : أنا أتضمن عن أهل هذه الناحية أو أهل هذا البلد خراجهم — ورضواهم بذلك فقالوا : هذا أخف علينا — نظر فى ذلك ، فإن كان صلاحا لأهل هذا البلد والناحية قبل وضمن وأشهد عليه ، وصير معه أميرا من قبل الإمام يوثق بدينه وأمانته ويجرى عليه من بيت المال ، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو الزيادة عليه أو تحميله شيئا لا يجب عليه منعه الأمير من ذلك أشد المنع .

وأمير المؤمنين أعلى عينا بما رأى من ذلك ، وما رأى أنه أصلح لأهل الخراج وأوفر على بيت المال عمل عليه من القبالة والولاية بعد الأعذار والتقدم إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية ، والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم . فإن فعل فغدا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا وناهيا لغيره إن شاء الله .

ورأيت (أبقى الله أمير المؤمنين) أن تتخذ قوما من أهل الصلاح والدين

---

(١) الأعراف ٨٥ (٢) البقرة ٢٠٥

والأمانة فتوليهم الخراج . ومن وليت منهم فليكن فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا ، لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت . تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور فى حكم إن حكم . فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها وتجنب ما حرم منها ، يرفع من ذلك ما يشاء ويحتجن منه ما يشاء ؛ فإذا لم يكن عدلا ثقة أمينا فلا يؤتمن على الأموال ، إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ، وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئا من أمر الخراج والبحث عن مذاهبهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم ، ولكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم ، والغلظة على الفاجر ، والعدل على أهل الذمة ، وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم ، والعفو عن الناس ؛ فإن ذلك يدعوهم إلى الطاعة وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له ، وترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم فى مجلسه ووجهه حتى يكون القريب والبعيد والشريف والوضيع عنده فى الحق سواء ، وترك اتباع الهوى فإن الله ميز من اتقاه وآثر طاعته وأمره على من سواهما .

وإنى لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قبلك إيثارك ذلك على غيره ، ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله به دونك ، وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله .

ولتسير مع الوالى الذى وليته، قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك، فإن مِن نصحك أن لا تظلم رعيتك، وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر، ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه، فإن قال أهل الخراج نحن نجرى على ولينا وحده من عندنا لم يقبل ذلك منهم ولم يحملوه، فإنه قد بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل والوالى جماعة؛ منهم من له به حرمة، ومنهم من له إليه وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، ويستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقضى بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملونه، إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى، ثم لا يزال الوالى ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها من نزُله بما لا يقدرون عليه ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم، ثم قد بعث رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجل ممن له عليه الخراج ليأتى به فيأخذ منه الخراج فيقول له: قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا. حتى لقد بلغنى أنه ربما وظف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج، فإذا أتاه الموجه إليه قال له: أعطنى جعلى الذى جعله لى الوالى، فإن جعلى كذا وكذا. فإن لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والغنم، ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعدوانا، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للفىء مع ما فيه من الإثم، فمره بحسم هذا وما أشبه وترك التعرض لمثله، حتى لا يكون مع الوالى من هؤلاء الذين سميت أحد، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ولا يوضع إلا فى حقه.

وتقدم فى اختيار هؤلاء الجند الذين تصيرهم مع الوالى وليكونوا من صالحى الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم إن شاء الله تعالى.

(حجة الوداع)

وتقدم فى أن يكون حصاد الطعام ودياسه[١] من الوسط، ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس، فإذا ما أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوما واحدا، فإنه ما لم يحرز فى البيادر تذهب به الأكرة (الحراث) والمارة والطير والدواب، وإنما يدخل ضرر ذلك على الخراج، فأما على صاحب الطعام فلا لأن صاحب الطعام يأكل منه فيما بلغنى وهو سنبل قبل الحصاد إلى أن يبلغ المقاسمة، فحبس الطعام فى الصحراء والبيادر ضرر على الخراج، وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه .

ولا يحبس الطعام إذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة ولا يداس، فإن فى حبسه فى البياذر ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث، ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحرز عليهم حرزا ثم يؤخذوا بنقائص الحرز، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد .

وليس ينبغى للعامل ولا يسعه أن يدعى على أهل الخراج ضياع غلة فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط، وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم ولا يكيله عليهم كيل مفرط، ثم يدعه فى البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم فيكيله ثانية، فإن نقص عن الكيل الأول قال : أوفونى وأخذ منهم ما ليس له، ولكن إذا ديس الطعام ووضع فيه القفيز قاسمهم وأخذ حقه ولا يحبسه ولا يكيل للسلطان كيل بزيهار وللأكار كيل السرد، بل يكون كيلا واحدا بين الفريقين سردا مرسلا .

ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجره ولا احتقان ولا نزلة ولا حمولة طعام لسلطان، ولا يُدَّعى عليهم بنقيصه فتؤخذ منهم، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج (رسل البريد) ولا أجور الكيالين

---

(١) داس الرجل الحنطة دوسا ودياسا مثل الدراس .

ولا مؤنة عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذين وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذوا بأثمان الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا ، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت فى القطيعة فى المقاسمة .

ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى خراجه فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها .

ولا يضربن رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله . فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شنيع فى الإسلام .

ورأيت أن تأمر عمال الخراج إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم فذكروا لهم أن فى بلادهم أنهارا عادية قديمة وأرضين كثيرة غامرة ، وأنهم إن استخرجوا لهم تلك الأنهار واحتفروها وأجرى الماء فيها عمرت هذه الأرضون الغامرة وزاد فى خراجهم ، كتب بذلك إليك فأمرت رجلا من أهل الخير والصلاح يوثق بدينه وأمانته فتوجهه فى ذلك حتى ينظر فيه ويسأل عنه أهل الخبرة والبصيرة به ، ومن يوثق بدينه وأمانته من أهل ذلك البلد ، ويشاور فيه غير أهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة ، ولا يجر إلى نفسه بذلك منفعة ولا يدفع عنها به مضرة ، فإذا اجتمعوا على أن فى ذلك صلاحا وزيادة فى الخراج أمرت بحفر تلك الأنهار وجعلت النفقة من بيت المال ، ولا تحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خيرا من أن يخربوا ، وأن يفروا[1] خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا ، وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج فى أرضيهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أجيبوا إليه

---

(١) يفروا من الوفر .

إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم من أهل ناحية أخرى ورستاق[١] آخر مما حولهم، فإن كان فى ذلك ضرر على غيرهم وذهاب بغلاتهم وكسر للخراج لم يجابوا إليه.

وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج، ولا يحمل كله على أهل الخراج، وأما الأنهار التى يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

فأما البثوق والمسنيات والبريدات[٢] التى تكون فى دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين، فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبيهه، وإنما يدل الضرر من ذلك على الخراج، ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل فى ذلك بما يجب عليه لله عرفت أمانته وحمد مذهبه، ولا يولى من يخونك ويعمل فى ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ولمن معه، أو يدع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم.

قال أبو يوسف: وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد، وكيف جبوا

---

(١) الرستاق: (معرب) ويستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم.

(٢) البثوق: جمع بثق وهو ما يخرقه الماء فى جانب النهر. والمسنيات: جمع مسناة وهو السد يبنى فى وجه الماء. البريدات: مفاتيح الماء وهى فارسية.

الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل أنه قد أمر به وقد أمر بغيره .

وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شىء من الفىء أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه فى شىء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها دعوة مجابة .

قال معاذ : « صل ونم واطعم واكتسب حلالا ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوات — أو دعوة — المظلوم » .

إن العدل وإنصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما فى ذلك من الأجر يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد . والبركة مع العدل تكون ، وهى تفقد مع الجور ، والخراج المأخوذ من الجور تنقص البلاد به وتخرب . هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعالى كان يجبى السواد مع عدله فى أهل الخراج وإنصافه لهم ورفعه الظلم عنهم مائة ألف ألف ، والدرهم إذ ذاك وزنه وزن مثقال . فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك فى الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ، رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك فى الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ، ويأمل الضعيف

المقهور جلوسك ونظرك فى أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه ، فإن لم يمكنك الاستماع فى المجلس الذى تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظرت فى أمر طائفة منهم فى أول مجلس وفى أمر طائفة أخرى فى المجلس الثانى وكذلك فى المجلس الثالث ، ولا تقدم فى ذلك إنسانا على إنسان ، من خرجت قصته أولا دعى أول ، وكذلك من بعده . مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر فى أمور الناس يوما فى السنة ليس يوما فى الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم ؛ وإنى لأرجو لك بذلك أعظم الثواب . إنه من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب الآخرة . قال ﷺ : من نفَّس عن مؤمن كربة نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما فى الدنيا ستر الله زلته يوم القيامة » . وقال ﷺ : « من بعثنا على عمل فليبخ بقليله وبكثيره ، فمن خان خيطا فما سواه فإنما هو غلول يأتى به يوم القيامة » .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلا من أخيرهم وأصلحهم ، وإلى أهل البصرة كذلك ، وإلى أهل الشام كذلك ، فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد ، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد ، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط ، كلهم سلميون ، فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : دنست أصحاب رسول الله ﷺ فقال له عمر : يا أبا عبيدة إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة دينى فبمن أستعين ؟ قال : أما إن فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة .

يقول : إذا استعملتهم على شىء فأجزل لهم فى العطاء والرزق لا يحتاجون .

قال عبد الله بن العباس : « بعث إلىّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتيته فقال : يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير والخير قليل ، وقد

رجوت أن تكون منهم فدعوتك لأستعملك عليها وفى نفسى منك شيء أخافه ولم أره منك وأنا أخشاه عليك . فما رأيك فى العمل ؟ قلت : فإنى لا أرى أن أعمل لك عملا حتى تخبرنى بما فى نفسك . قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قلت : أريد إن كنت بريئا من مثله عرفت أنى لست من أهله وإن كنت ممن أخشى على نفسى خشيت عليها مثل الذى خشيت على ؛ فقلما رأيتك ظننت شيئا إلا جاء عليه الوحى . فقال : يا بن عباس إنى أطمح حالك أنك لا تجدنى إلا قريب الجد، وإنى خشيت عليك أن تأتى على الفيء الذى هو آت وأنك فى عملك ، فيقال لك هلم إلينا ولا علم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله — ﷺ — استعمل الناس وترككم . وقلت : والله لقد رأيت الذى رأيت ، ولم تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ما أدرى أصرفكم عن العمل وأرفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ، أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيتبع العتاب عليكم ولا بد من عقاب ، فقد فرغت لى وفرغت لك فما رأيك ؟ قلت : لا أرى أن أعمل لك . قال : لم ؟ قلت : لأنى إن عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك لم أبرح قذاة فى عينك . قال : فأشر علىّ . قلت : أشير عليك أن تستعمل صحيحا منك صحيحا عليك » .

وعن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دعا أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال : إذا لم تعينونى فمن يعيننى ؟ قالوا : نحن نعينك . فقال : يا أبا هريرة ائت البحرين وهجر أنت العام . قال : فذهبت فجئته فى آخر السنة بغرارتين فيهما خمسمائة ألف . فقال عمر رضى الله عنه ، ما رأيت مالا مجتمعا قط أكثر من هذا . فيه دعوة مظلوم أو مال يتيم أو أرملة ؟ قلت : لا والله ، بئس والله الرجل أنا إذن إن ذهبت أنت بالمهنأ وأنا أذهب بالمؤنة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل من بقايا أهل الشام قد انقطع إلى الشام يذكر له ما وقع مما ابتلى به من أمر المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويسأله

المعاونة على ما هو فيه ، فكتب إليه الرجل : بلغنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما ابتلى به من أمور المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويطلب منى المعاونة ، واعلم أنك إنما أصبحت فى خلق بال ورسم دارس ، خاف العالم فلم ينطق ، وجهل الجاهل فلم يسأل ، وتسألنى المعاونة فيما أنعم الله على فلن أكون ظهيرا للمجرمين .

وكان عمر بن الخطاب يجبى العراق كل سنة مائة ألف ألف ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

وكتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجبلة ، وكان قاضى الجزيرة وعلى خراجها ، فكتب إليه عمر : إنى لم أكلفك ما يعنيك ، اجتن الطيب واقض بما استبان لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلى ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا .

وضرب عمر رجلا فقال له الرجل : إنما كنت أحد رجلين ، رجلا جهل فعلم أو أخطأ فعفى عنه . فقال له عمر : صدقت ، دونك فامتثل . فعفا الرجل عنه .

وضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجالا ونساء ازدحموا على حوض ، فلقيه علىّ فسأله فقال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت . فقال على رضى الله عنه : إن كنت ضربتهم على غش وعداوة فقد هلكت . وإن كنت ضربتهم على نصح وإصلاح فلا بأس . إنما أنت راع . إنما أنت مؤدب .

وكان عمر إذا بعث عماله قال : إنى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم ، وأدروا لقحة المسلمين .

وخطب عمر بن الخطاب الناس فقال : إنى والله ما أبعث إليكم عمالى

ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ؛ ولكنى أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من المسلمين واليا على رعية فأدب بعضهم أنك لتقصه منه ؟ فقال : إى والذى نفسي بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم .

وكتب عمر رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم فوافوه ، فقام فقال : يأيها الناس إنى بعثت عمالى هؤلاء ولاة بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال : يا أمير المؤمنين عاملك ضربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه .

فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقيده منه وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذا فلنرضه . فقال : دونكم .

فأرضوه بأن اشتُريَت منه بمائتى دينار ، كل سوط بدينارين .

وكان عمر رضي الله عنه إذا استعمل رجلا أشهد رهطا من الأنصار وغيرهم واشترط عليه أربعا : أن لا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ولا يتخذ حاجبا . فبينما هو يمشى فى بعض طرق المدينة إذ هتف به رجل : يا عمر أترى هذه الشروط تنجيك من الله تعالى وعاملك عياض بن غنم على مصر وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا محمد بن مسلمة ، وكان رسوله إلى العمال ، فبعثه وقال : ائتني به على الحال التي تجده عليها . فأتاه فوجد على بابه حاجبا فإذا عليه قميص رقيق . قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : دعني أطرح عليّ قبائي . فقال : لا ، إلا على حالك هذه .

فقدم به عليه . فلما رآه عمر قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة من صوف وبريضة من غنم وعصا فقال : البس هذه المدرعة وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم واشرب واسق من مرّ بك واحفظ الفضل علينا . أسمعت ؟ قال : نعم والموت خير من هذا . فجعل يرددها عليه ويردد الموت خير من هذا . فقال عمر : ولم تكره هذا وإنما سمي أبوك غنما لأنه كان يرعى الغنم ؟ أترى يكون عندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : انزع . ورده إلى عمله فلم يكن له عامل يشبهه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بلغه أن عامله لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزعه ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري أن سوِّ بين الناس في مجلسك وجاهك ، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك .

وخطب عمر رضي الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي ـ ﷺ ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ؛ لكم عليّ أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم

علىّ إذا وقع فى يدى أن لا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم علىّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم علىّ أن لا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم[1] فى ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء ، قليل الفقهاء كثير الأمل ، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب . ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله به وليصبر .
يأيها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال فيما عظم من حقه : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »[2] ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدرّوا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم ، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم ، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ فى جهاد عدوكم .

أيها الناس إنى أشهدكم على أمراء الأمصار أنى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس فى دينهم ، ويقسموا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم ، فإن أشكل عليهم شىء رفعوه إلىَّ .

وكان عمر بن الخطاب يقول : لا يصلح هذا الأمر إلا بشدة فى غير تجبر ، ولين فى غير وهن .

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى كعب بن مالك وهو عامله : « أما بعد فاستخلف على عملك واخرج فى طائفة من أصحابك تمر بأرض السواد

---

(١) تجمير الجيش : جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم .
آل عمران ٨٠

كورة كورة فتسألهم عن أعمالهم وتنظر فى سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ، ثم ارجع إلى البهقباذات[1] فتول معونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك منها . واعلم أن الدنيا فانية ، وأن الآخرة آتية ، وأن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، وأنك مجزى بما أسلفت ، وقادم على ما قدمت من خير ، فاصنع خيرا تجد خيرا ».

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذا بعث سرية ولى أمرها رجلا وأوصاه فقال له : « أوصيك بتقوى الله الذى لا بد لك من لقائه ، وعليك بالذى يقربك إلى الله فإن ما عند الله خلف من الدنيا » .

وكان رباح بن عبيد مع عمر بن عبد العزيز فقال له : إن لى بالعراق ضيعة وولدا ، فائذن لى يا أمير المؤمنين أتعاهدهم ، قال : ليس على ولدك بأس ولا على ضيعتك ضيعة .

فلم يزل به حتى أذن له ، فلما كان يوم ودعه قال : يا أمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها . قال : حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم ؟

فلما قدم العراق سأل الرعية عنهم فأخبر بكل خير عنهم ، فلما قدم على عمر سلم عليه وأخبره بحسن سيرتهم فى العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : « الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبدا ، إن الراعى مسئول عن رعيته ، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ، ويقربه إليه ، فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم .

---

(١) بهقباذ ، اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سقى الفرات منسوبة إلى قباذ فيروز والد أنو شروان .

وكتب عدى بن أرطأة ـــ عامل كان لعمر بن عبد العزيز ـــ إليه : « أما بعد فإن أناسا قِبلَنا لا يؤدون ما عليهم من خراج حتى يمسهم شيء من العذاب » . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله . إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قِبَله عفوا وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلىّ من أن ألقاه بعذابهم ، والسلام » .

وأتى عمر رجل فقال : يا أمير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه فعوضه عشرة آلاف .

وقال أبو يوسف فى الجزية : والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن فى السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قُبل منهم من الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم فى الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر .

وأسهب أبو يوسف فيمن تجب عليه الجزية وكيفية جبايتها والرفق فى تحصيلها : « فلا يضرب أحد من أهل الجزية فى استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم » .

وقال أبو يوسف فى العشور : أما العشور فرأيت أن توليها قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ، ثم

تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر بهم ، وهل يجاوزون ما قد أمروا به ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه ، وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك الأمر وأحسنت إليهم ، فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى لما تأمر به فى الرعية ، يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه ، وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى ، وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض القيمة ، ثم يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، من كل ما مر به العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتى درهم فصاعدا أخذ منه العشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتى درهم لم يؤخذ منه شىء » .

وكذلك إذا بلغت القيمة عشرين مثقالا أخذ منها العشر ، فإن كانت قيمة ذلك أقل لم يؤخذ منها شىء ، وإذا اختلف عليه بذلك مرات كل مرة لا يساوى مائتى درهم لم يؤخذ منه شىء . وإن أضاف بعض المرات إلى بعض وكانت قيمة ذلك تبلغ ألفا فلا شىء فيه ، ولا يضاف بعض ذلك إلى بعض .

وإذا مر عليه بمائتى درهم مضروبة ، أو عشرين مثقالا مضروبة ، أخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ، ونصف العشر من الذمى ، والعشر من الحربى ، ثم لم يؤخذ منها شىء إلى مثل ذلك الوقت من الحول ، وإن مر بها غير مرة .

وكذا إذا مر بمتاع قد اشتراه للتجارة ، فإن كان المتاع يساوى مائتى درهم أو عشرين مثقالا أخذ منه ، وإن كان لا يساوى وكانت قيمته تنقص عن مائتى درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شىء ، فأما الحربى خاصة فإذا أخذ منه العشر ، وعاد ودخل فى دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ أخذ منه العشر ، فمر على العاشر فإنه يأخذ منه إذا كان معه ما يساوى مائتى درهم أو عشرين مثقالا ،

من قِبَل أنه حيث عاد إلى دار الحرب فقد سقطت عنه أحكام الإسلام ، وإن كان معه أقل من مائتى درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شيء ، إنما السنة فى المائتى درهم أو عشرين مثقالا ، فعلى المسلم فى المائتين خمسة دراهم ، وعلى الذمى فى المائتين عشرة دراهم ، وعلى الحربى فى المائتين عشرون درهما ، وعلى هذا الحساب الذى وضعت لك يؤخذ فى الذهب إذا وجب : على المسلم نصف مثقال ، وعلى الذمى مثقال ، وعلى الحربى مثقالان .

وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شيء ، وإذا مر أهل الذمة على العاشر بخمر أو خنازير قُوِّم ذلك على أهل الذمة ، يقومه أهل الذمة ثم يؤخذ منهم نصف العشر ، وكذلك أهل الحرب إذا مروا بالخنازير والخمور فإن ذلك يُقوَّم عليهم ثم يؤخذ منهم العشر ، وإذا مر المسلم على العاشر بغنم أو بقر أو إبل فقال إن هذه ليست سائمة أحلف على ذلك ، فإذا حلف كف عنه . وكذلك كل طعام يمر به عليه فقال : هو من زرعى ، وكذلك التمر يمر به فيقول : هو من تمر نخلى ، فليس عليه فى ذلك عشر ، إنما العشر فى الذى اشترى للتجارة ، وكذلك الذمى ، أما الحربى فلا يقبل منه ذلك .

وإذا مر التاجر على العاشر بمال وبمتاع وقال : قد أديت زكاته . وحلف على ذلك فإن ذلك يقبل منه ويكف عنه . ولا يقبل فى هذا من الذمى ولا من الحربى لأنه لا زكاة عليهما يقولان قد أديناها ، ومن مر بمال فادعى أنه مضاربة أو بضاعة لم يعشر بعد أن يحلف على ذلك . وكذلك العبد يمر بمال سيده وبمال نفسه فهو سواء وليس عليه عشر حتى يحضر مولاه ، وكذلك المكاتب ليس على ماله العشر .

وإذا مر عليه التاجر بالعنب أو بالرطب أو بالفاكهة الرطبة قد اشتراها للتجارة وهى تساوى مائتى درهم فصاعدا أخذ منه ربع العشر إن كان مسلما .

وإن كان ذميا فنصف العشر ، وإن كان حربيا فالعشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتى درهم لم يؤخذ منه شيء . وإن اختلف عليه بذلك مرارا ، وكل ذلك لا يساوى مائتى درهم . ولو أضاف بعض المرات إلى بعض فكانت قيمة ذلك إذا جمع تبلغ ألفا فلا زكاة فيه أيضا ، ولا ينبغى أن يضاف بعض المرار إلى بعض .

وكل ما أخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جزية رءوسهم فإن سبيل ذلك كله سبيل الخراج . ويقسم فيما يقسم فيه الخراج . وليس هو الصدقة ، قد حكم الله فى الصدقة حكما قد قسمها عليه فهى على ذلك ، وحكم فى الخمس حكما فهو على ذلك .

قال زياد بن حدير : « أول من بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العشور أنا ، فأمرنى أن لا أفتش أحدا ، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما واحدا من المسلمين ، ومن أهل الذمة من كل عشرين واحدا ، ومن لا ذمة له العشر » .

وقال أنس بن مالك : « بعثنى عمر رضى الله تعالى عنه على العشور ، وكتب لى عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا فيه لتجاراتهم ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر » .

وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : « إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » . فكتب إليه عمر : « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس دون المائتين شيء ، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه » .

وكتب أهل نبيج — قوم من أهل الحرب — وراء البحر إلى عمر بن الخطاب :

« دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » ، فشاور عمر أصحاب رسول الله — ﷺ — فى ذلك ، فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .

وبعث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقوموها بعشرين ألفا ، فقال حدير : أعطنى الفرس وخذ مني تسعة عشر ألفا أو أمسك الفرس فأعطنى ألفا ، فأعطاه ألفا وأمسك الفرس .

ثم مر عليه راجعا فى سنة فقال له : أعطنى ألفا أخرى ، فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟ قال : نعم . فرجع التغلبى إلى عمر بن الخطاب فوافاه بمكة وهو فى بيت فاستأذن عليه فقال : من أنت ؟ فقال : رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته فقال له عمر : كفيت ، ولم يزده على ذلك .

فرجع التغلبى إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد كتاب عمر قد سبق إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، إلا أن تجد فضلا .

وكان رزيق بن حيان على مكس مصر أيام عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه عمر : « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ بما ظهر من أموالهم العين ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين دينارا دينارا ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا . فإن نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، وإذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول » .

وإذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر، ولا يقبل قول الذمي فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه فيأخذ نصف العشر من قيمتها .

قال أبو يوسف : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الدعارة والفسق والتلصص إذا أخذوا فى شيء من الجنايات وحبسوا هل يجرى عليهم ما يقوتهم فى الحبس؟ والذى يجرى عليهم من الصدقة أو من غير الصدقة؟ وما ينبغى أن يعمل به فيهم؟

لا بد من كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجد شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال، من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك، وأحب إلىّ أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته ، فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك .

والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب، يترك يموت جوعا؟ وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل . ولم تزل الخلفاء يا أمير المؤمنين تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف، وأول من فعل ذلك على ابن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق، ثم فعله معاوية بالشام، ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده .

كان على بن أبى طالب إذا كان فى القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه ، فإن كان له مال أنفق عليه من ماله، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين وقال : يحبس عنهم شره ، وينفق عليه من بيت مالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : « لا تدعن فى سجونكم أحدا من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائما ، ولا تبيتن فى قيد إلا رجلا مطلوبا

بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم والسلام » .

فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوّام والجلاوزة (الشرطة) . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده يدفع ذلك إليهم شهرا بشهر ، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ، فمن كان منهم قد أطلق وخلى سبيله رد ما يجرى عليه . ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد ، وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه ، وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار . يجرى على النساء مثل ذلك ، وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة ، وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس ، فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطئوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا ، يخرجون فى السلاسل يتصدقون . وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم ، فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع ، فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا . إن ابن آدم لم يعرَ من الذنوب ، فتفقد أمرهم ، ومر بالإجراء عليهم مثلما فسرت لك . ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن ، فإنه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه ، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكترون من حمله إلى المقابر فيدفن بلا غسيل ولا كفن ولا صلاة عليه ، فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله .

ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ، ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه ، وإنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمرهم ، إنما هو حبس وليس فيه نظر . فمر ولاتك جميعا بالنظر فى أمر أهل المحبوس فى كل الأيام ، فمن كان عليه أدب أُدِّب وأطلق ، ومن لم يكن له قضية خلى عنه .

وتقدم إليهم أن لا يسرفوا فى الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع ، فإنه بلغنى أنهم يضربون الرجل — فى التهمة وفى الخيانة — الثلاثمائة والمائتين وأكثر وأقل ، وهذا مما لا يحل ولا يسع ، ظهر المؤمن حمى إلا من حق يجب بفجور أو قذف أو سكر أو تعزير لأمر أتاه لا يجب فيه حد ، وليس يضرب فى شيء من ذلك ، كما بلغنى أن ولاتك يضربون ، وأن رسول الله — ﷺ — قد نهى عن ضرب المصلين .

قال أبو بكر رضى الله عنه : « نهى رسول الله — ﷺ — عن ضرب المصلين » . ومعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم أنه نهى عن ضربهم من غير أن يجب عليهم حد يستحقون به الضرب . وهذا الذى يأتينى أن ولاتك يفعلونه ليس من الحكم والحدود فى شيءٍ ، ليس يجب هذا على جانى الجناية صغيرة ولا كبيرة . من كان منهم أتى ما يجب عليه فيه قود أو حد أو تعزير أقيم عليه ذلك ، وكذلك من جرح منهم جراحة فى مثلها قصاص وقامت عليه البينة بذلك قيس جرحه واقتص منه ، إلا أن يعفو المجنى عليه . فإن لم يكن يستطاع فى مثلها قصاص حكم عليه بالأرش وعوقب وأطيل حبسه حتى يحدث توبة ثم يخلى عنه ، وكذلك من كان منهم سرق ما يجب فيه القطع قطع ، إن الأجر فى إقامة الحدود عظيم ، والصلاح فيه لأهل الأرض كثير .

قال رسول الله — ﷺ — : « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحا » .

ولا يحل للإمام أن يحابى فى الحد أحدا، ولا تزيله عنه شفاعة، ولا ينبغى له أن يخاف فى ذلك لومة لائم إلا أن يكون حدا فيه شبهة، فإذا كان فى الحد شبهة درأه لما جاء فى ذلك من الآثار عن أصحاب رسول الله — ﷺ — والتابعين وقولهم: « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم. والخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة »، ولا يحل إقامة حد على من لم يستوجبه بغير شبهة فيه، ولا يحل لمسلم أن يشفع إلى إمام فى حد قد وجب وتبين. فأما قبل أن يرفع ذلك إلى الإمام فقد رخص فيه أكثر الفقهاء، ولم يختلفوا فى التوقى للشفاعة فيه بعد رفعه إلى الإمام فيما علمنا والله أعلم.

مروا على الزبير بسارق فشفع فيه فقالوا له: « أتشفع فى حد؟ » قال: « نعم، ما لم يؤت به الإمام، فإن أتى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا عنه ».

وشفع على رضى الله عنه فى سارق، فقيل له: « أتشفع فى سارق؟ » قال: نعم، ما لم يبلغ به الإمام، فإذا بلغ به الإمام فلا أعفاه الله إن عفا عنه ».

وقد رأيت غير واحد من فقهائنا يكره الشفاعة فى الحد ألبتة، ويتوقاه ويحتج فى ذلك بما قال ابن عمر: « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد حادّ الله فى خلقه ».

سرقت امرأة من قريش قطيفة من بيت رسول الله — ﷺ — فتحدث أن رسول الله — ﷺ — عزم على قطع يدها، فأعظم الناس ذلك. فجاءوا النبى — ﷺ — يكلمونه وقالوا: نحن نفديها بأربعين أوقية. فقال: « تطهر خير لها » فلما سمعوا لين قول النبى — ﷺ — أتوا أسامة فقالوا: « كلم رسول الله — ﷺ — » فكلمه. فقام رسول الله — ﷺ — خطيبا فقال: ما إكثار كم علىّ فى حد من حدود الله وقع على أمة من إماء الله؟ والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد نزلت بمثل الذى نزلت به لقطع محمد يدها. يا أسامة لا تشفع فى حد ».

وتكلم أبو يوسف فى الحدود على أهل الجنايات وعن الأموال التى تصاب مع اللصوص ثم قال : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين مما بلغك واستقر عندك وكتب به إليك صاحب البريد فى يد قاضى البصرة أرضين كثيرة فيها نخل وشجر ومزارع ، وأن غلة ذلك تبلغ شيئا كثيرا فى السنة ، وقد صيرها فى أيدى وكلاء من قبله يجر على الواحد منهم ألفا وألفين وأكثر وأقل وليس أحد يدعى فيها دعوى ، وأن القاضى ووكلاءه يأكلون ذلك ، فهذا وشبهه من الواجب عليك النظر فيه إذا استقر عندك ، فما كان فى يد القاضى مما ليس يدعى فيه أحد دعوى وقد استغله وكلاء القاضى وأخذوا غلة ذلك وطالت به المدة ولم يأت أحد يطلب فيه حقا ، وقد أمسك القاضى عن الكتابة إليك بذلك لترى فيه رأيك . فقاضى سوء صير هذا وشبهه مأكلة له ولمن معه ، وهو آثم فى ذلك . فتقدم إلى ولاتك فى محاسبة القاضى على ما جرى على يديه وأيدى وكلائه حتى يخرجوا منه ، ويصير ما كان من غلات ذلك إلى بيت مال المسلمين بعد أن لا يكون لوارث ولا لأحد فيها شىء يدعيه ، وإذا صح مثل هذا على القاضى حتى تبين امتناعه من الكتابة إلى الإمام بذلك ، فقاضى سوء غاش لنفسه وللإمام وللمسلمين ، ولا ينبغى أن يستعان به على شىء من أمور المسلمين .

وقد رأيت أن تأمر بإخراج تلك الأرضين من أيدى القضاة الذين يأكلونها ويؤكلونها ، وأن تختار لها رجلا ثقة أمينا عدلا ، وأن تأمر أن يختار لها الثقات فيتولوا أمرها ، وتأمر بأن تحمل غلاتها إلى بيت مال المسلمين إلى أن يأتى مستحق لشىء منها ، فإن كل من مات من المسلمين لا وارث له فماله لبيت المال ، إلا أن يدعى مدع منها شيئا بميراث يرثه عن بعض من مات وتركها ويأتى على ذلك ببرهان وبينة ، فيعطى منها ما يجب له ، ورأيك بعد ذلك .

وسألت من أى وجه تجرى على القضاة والعمال الأرزاق ؟ فاجعل — أعز الله

أمير المؤمنين بطاعته ـــ ما يجرى على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين : من جباية الأرض ، أو من خراج الأرض والجزية لأنهم فى عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ، ويجرى على كل والى مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل ، وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا ، إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها كما قال الله تعالى : « والعاملين عليها » . فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك ، من رأيت أن تزيده فى رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت ، أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك ، وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره ، فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب ، وأما قولك يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم ، من الذى يصير إليه ويوكل من قلبه من يقوم بضياعهم وما لهم فلا . إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى ، والصغير والكبير ، ولا يؤخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقا ، ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين ، فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بما يجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه لا يجحف بمال الوارث فيذهب به ، ويأكله الوكلاء والأمناء ، ويبقى الوارث هالكا . وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ، ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث ، إلا من وفقه الله تعالى منهم .

وسألت يا أمير المؤمنين عن رجل الحرب يخرج من بلاده يريد الدخول إلى دار الإسلام فيمر على مسلحة من مسالح المسلمين عن طريق أو غير طريق فيؤخذ فيقول : خرجت وأنا أريد أن أصير إلى بلاد الإسلام أطلب أمانا على نفسى وأهلى

وولدى . أو يقول : إنى رسول . يصدق أو لا يصدق ؟ وما الذى ينبغى أن يعمل به فى أمره . فإن كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعا منهم ، لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعا منهم ، صدق وقبل قوله ، فإن قال : أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهدية إليه فإنه يصدق ويقبل قوله ، إذا كان أمرا معروفا . فإن مثل ما معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب ، ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، إلا أن يكون معه شىء له خاصة حمله للتجارة ، فإنه إذا مر به على العاشر عشره ، ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أمانا عشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة ، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه .

وإذا قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلما ، فإن هذا لا يصدق وهو فىء للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا استرقوه ، وإن قدم لتضرب عنقه فقال : آمنت بدينكم ، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإن هذا إسلام يحقن به دمه ، ويكون ماله فيئا ولا يقتل ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـٰه إلا الله ، فإذا قالوها منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فإذا أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذى أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فإن اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذى باعه منهم ، ورد أولـٰئك الثمن إليهم . فإن كان مع هذا الرسول أو الذى أعطى الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أشر منه ، أو دابة فأبدلها بأشر منها ، فذلك جائز ولا بأس بأن يترك يخرج بذلك . وإن كان أبدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ، ورد ذلك على صاحبه

الذى أبدله ، ولا ينبغى للإمام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان ، أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فأما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يمنعون منه . ولا ينبغى أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشىء من الخير والخنزير ولا الربا وما أشبه ذلك ، لأن حكمه حكم الإسلام وأهله ، ولا يحل أن يبايع فى دار الإسلام ما حرم الله تعالى . ولو أن هذا الداخل إلينا بأمان أو الرسول زنى أو سرق فإن بعض فقهائنا قال : لا أقيم عليه الحد . فإن كان استهلك المتاع فى السرقة ضمنته . وقال إنه لم يدخل إلينا ليكون ذميا تجرى عليه أحكامنا ، قال : ولو قذف رجلا حددته ، وكذلك لو شتم رجلا عزرته ، لأن هذا حق من حقوق الناس .

وقال بعضهم : إن سرق قطعته ، وإن زنى حددته ، وكان أحسن ما سمعنا فى ذلك والله أعلم أن تأخذه بالحدود كلها حتى تقام عليه .

وإن أقام هذا المستأمن فأطال المقام أمر بالخروج ، فإن أقام بعد ذلك حولا وضعت عليهم الجزية ، ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حملته الريح بمن فيه حتى ألقته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فأخذوا المركب ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك ، وهذا كتابه معنا إلى ملك العرب ، وهذا المتاع الذى فى المركب هدية إليه . فينبغى للوالى الذى يأخذهم أن يبعث بهم وما معهم إلى الإمام ، فإن كان الأمر على خلاف ما ذكروا كانوا فيئا لجميع المسلمين وما معهم ، والأمر فيهم إلى الإمام إن رأى أن يستبقيهم فعل ، وإن رأى قتلهم فعل ، والإمام فى ذلك موسع عليه .

وإن كان أهل المركب إنما قالوا نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلادكم لم يقبل ذلك منهم وصيروا ما معهم فيئا للمسلمين ، ولم يقبل قولهم إنا تجار .

وسألت يا أمير المؤمنين عن الجواسيس يوجدون وهم من أهل الذمة أو أهل

الحرب أو من المسلمين ، فإن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدى الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم ، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة .

وينبغي للإمام أن تكون له مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق ، فيفتشون من مر بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ، فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذى أصيب معه الكتاب وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه ، ولا ينبغي للإمام أن يدع أحدا ممن أسر من أهل الحرب فى أيدى المسلمين يخرج إلى دار الحرب راجعا إلا أن ينادى به ، فأما على غير الفدا فلا .

ولو أن الإمام بعث سرية فأغاروا على قرية من قرى أهل الحرب فأخذوا من فيها من الرجال والنساء والصبيان فأمر بهم الإمام إلى دار الإسلام ، فقسمهم الإمام واشتراهم من القسم وصاروا له فأعتقهم جميعا ، ثم أرادوا الرجوع إلى دار الحرب — الرجال والنساء — فلا ينبغي أن يتركهم وذاك ، ولا يدع أحدا منهم يعود إلى دار الحرب بعد أن يصيروا فى دار الإسلام إلا على ما وضعت لك من الفداء يفادى بهم .

قال الحسن : « لا يحل لمسلم أن يحمل إلى عدو المسلمين سلاحا يقويهم به على المسلمين ، ولا كراعا ولا ما يستعان به على السلاح والكراع » .

وقد ترجم كتاب الخراج إلى الألمانية وإلى لغات أخرى ، وعكف عليه رجال الاقتصاد ورجال القانون الأجانب وأخذوا عنه الكثير ، فهل آن الأوان ليدرسه رجال القانون ورجال الاقتصاد عندنا دراسة مقارنة مستفيضة ؟ إنهم لو فعلوا لخرجوا بحقيقة لا تقبل الجدل ، وهى أن أغلب النظريات الاقتصادية المعاصرة ، وأغلب القوانين والشروح الفقهية الأجنبية ، إنما هى بضاعتنا قد ردت إلينا .

المــراجع

القرآن الكريم ــ الكتاب المقدس ــ صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينسن ــ ترجمة د . يحيى الخشاب

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

إحياء علوم الدين — للغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى

محمد رسول الله — مولاى محمد على

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ــ ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطئ

عبقرية محمد — لعباس محمود العقاد

الروض الآنف — للسهيلى

تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم

فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس محمود العقاد

أسباب النزول — للواحدى

شرح نهج البلاغة — لابن أبي الحديد

الملل والنحل — للشهرستانى

فجر الضمير — جيمس هنرى برستد — ترجمة الدكتور سليم حسن

تفصيل آيات القرآن الحكيم — جول لابوم — ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى

الوحى المحمدى — السيد محمد رشيد رضا

سلم الواعظين — عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكوهجى

الحضارة البيزنطية — ستيفن رنسيمان

كتاب الخراج — لأبي يوسف

الإسلام والاشتراكية — ميرزا محمد حسين

ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب

النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية

دكتور جمال الدين محمد سعيد

رأس المال — كارل ماركس — ترجمة دكتور راشد البراوى

الربا فى الإسلام — ترجمة فاروق حلمى

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

ــ أحمس بطل الاستقلال
ــ أبو ذر الغفارى ترجم إلى الاندونيسية
ــ بلال مؤذن الرسول
ــ فى الوظيفة (مجموعة أقاصيص)
ــ سعد بن أبى وقاص
ــ همزات الشياطين (مجموعة أقاصيص)
ــ أبناء أبى بكر الصديق
ــ فى قافلة الزمان (رواية)
ــ أميرة قرطبة (قصة)
ــ النقاب الأزرق (قصة)
ــ المسيح عيسى بن مريم
ــ أهل بيت النبى
ــ محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

ــ قصص من الكتب المقدسة (مجموعة أقاصيص)
ــ صدى السنين (مجموعة أقاصيص)
ترجمت إلى الاندونيسية

ــ حياة الحسين

ـ الشارع الجديد	(رواية)
ـ وكان مساء	(قصة)
ـ أذرع وسيقان	(قصة)
ـ المستنقع	(قصة)
ـ ليلة عاصفة	(مجموعة أقاصيص)
ـ الحصاد	(رواية)
ـ جسر الشيطان	(قصة)
ـ النصف الآخر	(قصة)
ـ السهول البيض	(رواية)
ـ أم العروسة	(قصة)
ـ قلعة الأبطال	(قصة)

ـ وعد الله وإسرائيل

ـ عمر بن عبد العزيز

ـ هذه حياتى

ـ الحفيد

ـ ذكريات سينمائية

ـ كشك الموسيقى

ـ خفقات قلب

ـ صور وذكريات

ـ الإسراء والمعراج

ـ القصة من خلال تجاربى الذاتية

ـ عدو البشر

ـ أبطال الجزيرة الخضراء

ـ الثمر

— الله اكبر
— ثلاثة رجال فى حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب فى أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

ثمن الجزء الواحد عادى جنيهان
ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهات ونصف
ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرا فى ٢٠ مجلدا ٩٥ جنيها

رقم الإيداع : ٥٩٥٩
الترقيم الدولى : ١ — ٣٢٦ — ٣١٦ — ٩٧٧